روافد العشق

نوستالجيا
شارع حافظ رمضان متفرع من مكرم عبيد، القاهرة
جمهورية مصر العربية
هاتف: +201559439551 +20222726665
info@nostalgiaeg.com
www.nostalgiaeg.com

اسم الكتاب: روافد العشق
المؤلف: محمد فرحات
الفئة: رواية
عدد الصفحات: 132
رقم الإيداع: 2022/14701
الترقيم الدولي: 978-977-6716-12-4
سنة الإصدار: 2022
الطبعة: الأولى

التحرير والإشراف الفني: أحمد البربري
الإشراف العام: محمد صلاح عبد الباقي
الإخراج الداخلي والغلاف: أحمد البربري

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطيّ من الناشر، وموافقة المؤلف. يستثنى الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب إعلامياً بموافقة المؤلف، وما ينشره المؤلف عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي أو موقعه الشخصي، وما يمكن اقتباسه لأغراض الدراسة النقدية أو البحث العلمي أو أية أغراض تعليمية غير ذات منفعة تجارية.

جميع الآراء والأفكار الواردة بالكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف، ولا تمثل وجهة نظر الناشر بالضرورة.

© حقوق الطبع والتوزيع محفوظة- نوستالجيا للترجمة والنشر 2022

رواية

محمد فرحات

روافد العشق

نوستالجيا
NOSTALGIA

إهداء

لها عرفت أم لم تعرف، مليكة
المشرقين، زينب الوقت..
لولاكِ ما كنتُ بين الأحياء.

1

ضاقت به الحياة، واستحال كل ما فيها إلى ما ينغص الصفو، ويفسد العيش، لا أنيس ولا حبيب ولا بارقة أمل في سعادة ولو عابرة.

تسلل في هدأة الليل، يسلك طريقًا وعرًا غير مألوف، يبحث عن مخرجٍ ما، امتدَّ الطريق مستقيمًا أمام عينيه النازفتين دمعًا، وللعجب كان منيرًا بدون مصدرٍ واضح للنور، لا شمس ولا قمر ولا إضاءة مصطنعة، لا مصباح، ولا نار، ولا قبس منها.

تلوحُ من بعيدٍ أسوارٌ عالية، تُخفي الكثير، وتظهر القليل من ذؤاباتٍ لقمم أشجار الكافور والسرو والجميز والسدر، وغيره من أصناف الشجر المعمر العملاق، يسيرُ أزمانًا طويلة، لا يمسهُ نصبٌ، ولا يطاله رَهَقٌ، كأنما يصعَّدُ بكل خطوة في السماء درجَة، حتى وصل فإذا هو سورٌ ممتد على مد نظره، لا يصل لنهايته، ولا يظهر منه بابٌ ولا يُلمَحُ من بشرٍ مُرْشِدًا يرشد، أو دَالًّا يشير، لا شيء سوى وسوسات الريح وحفيف الأشجار، ما عليه غير السير خلف الأسوار العالية، لعله يصادف بابًا يلج منه لما وراء هذه الأسوار المناطحة للسحاب.

✠

1

يدور حول تلك الأسوار الشاهقة -بلا كللٍ- سبعَ دوراتٍ، وحينما يكملها إذا ببرقٍ ينير الوجود بضوئه، وزخاتُ مطرٍ تنهمر لتغسل أدران جسده وروحه.

لم تعد من ذكرى لكدرٍ أو حزن، يغزوه الفرح... يظهر من بعيد ... قويَ البنيان، عظيم الجُمَّة، يقطر المسك من مُنسَدِل شعره، نيِّر الجبين، أبيض الوجه، مشربٌ بحمرة، شديد سواد العين، طويل الأهداب، وسيع الصدر، تملأ البسمة وجهه، يحتضنه ليغيب عن دنيا، ويلج دنيا لم تخطر من قبل على باله، يأخذه من يده نحو بابٍ يظهر في السور... لم يظهر إلا له.

يشير نحو الباب، فيفتح مستقبلًا... هو وراء شاهق الأسوار أخيرًا، لتغزو ألوان الورود وشذاها نواظره وأنفه، وتغريدات الطيور مسامعه، ليستحيل الوجود نغمة وترنيمة لا تنقضي، وكأن سطور التاريخ تُكتب من جديد، لتتوالى عليه المشاهد ...

رجلٌ عظيم الهامة، ضخم البنيان، قويُّه، أحمر الوجهِ صحةً وعافية، ذو عمامة سوداء، تبدو عليه أمارات السيادة والسطوة والثراء والحكمة، وكأنه يملك الدنيا بمن فيها، إلا أن علامات الحيرة واللوعة تغزو وجهه النبيل، حينما خاطب ولده، والذي أخذ ذات صورته وزاد عليها شبابًا ومزيدَ نضرةٍ، «ألم تجده يا ولدي؟»..

- لا شغل لي غير البحث عنه، أخشى أن ينقضي العمر دونه، سأجده بإذن الله، أشعر أنني على مقربةٍ منه، كان الوالد السائل هو العيساوي، والولد المجيب هو ابنه السيد، يرتدي زي الأزاهرة، وكأنه سيغادر لتوه نحو معهده الأحمدي بطنطا.

والحقيقة أن البحث عنه، وأمنية العثور عليه لم تعد فقط تحقيقًا لرغبة والده الجليل المُلحة، بل أصبحت من أحلامه وأمنياته التي لا تبارحه.

✠

لم يفتر لسانه طوال رحلته لطنطا من بلدته «شمياطس»، عن ترديد ما أوصاهُ به أبوه من أوراد، ولما توقفت النجائبُ، لاحت مآذن وقباب روضة السيد البدوي، تطوف الحمائمُ أسرابًا يسابق بعضها البعض. والوقت قد أسفر عن فجرٍ وليدٍ تُعْلِنُ تكبيرات الصبح عن مولده.

تُسَارِعُ خطاه، مُعلنَة عن ميعة صِبا، وفورة شباب، تنشأ بين يدي أبيه الوليّ، الباحث من جديدٍ عن درجة مريدٍ لشيخ. لا يكف من ليلة إلى ليلة عن ملاحقة رؤاه، التي لا تفتأ تغزو ساعات صحوه، ثم خلجات نفسه وخواطره، من أين لك بشيخٍ وقد شِخْتَ يا عيساويّ ودانت لك كلُّ الطرق بالطاعة وأقرت بولايتك!

1

يدخل السيدُ الضريحَ الأحمديّ، يحتضنه مُقْبلًا، يُسر بأمنية اللقاء، فيجيبه بضَوعٍ مسكٍ كأنه قد فاح لتوّه من جنبات الفردوس، مُبشّرًا بقرب اللقاء، ليهتف مجذوبًا، مناديًا: «باب سيدنا النبي نظرة».

على رأس حلقة علمٍ جلس يوضح ما استُغلِقَ على فهم تلامذته، لينَ الكلام، بسامَ الثغر، نحيلَ الوجه، مثلثَ اللحية، مهندمَ الجبَّة، وسيمَ العمامة، كأنه من وجاهته ولدُ أحدِ الملوك؛ ومع جمال قسماته، كان مهابًا وكأنه ملِكٌ يجلس على عرشه... هو الشيخ محمود البنداري، سليل الباشوات والأولياء، من ملكوا الدنيا والدين، أصحاب الأحوال والكرامات، وكذلك الضياع والعزب والوزارات. كان وديعًا كحمامة استأنست لروضة البدوي، تبثه لوعةً من صد حبيبٍ جفا وتجاسر.

ينظرُ السيدُ له متعجبًا، كيف لم يره من قبل، وقد نَيَّفَ في طلبه العلم بالمعهد الأحمدي على الخمس سنين، وكأن الأرض قد أنبتته لسر، وأظهرته لغاية، هل هو «هو»؟ ...

- «نعم، أنا هو يا سيد ...أذهب لأبيك وبشره، فقد آن الأوان، ولاح زمن الأولياء، أذهب وسوف نأتيك».
- كيف وأنت لم تعرف عنوانًا ولا أمارة؟
- اذهب يا سيد وسوف نأتيك...

يُمضي ساعات الليل الشتويّ الطويل في مُجالَسة صديق صباه (العمدة حلمي)، يدور حديثهم عن أحوالهم وأورادهم؛ يتردد العمدة حلمي في مفاتحة صديقه بما يجول في صدره من خواطر، يقرأ العيساوي ما في صفحة وجه صديقه من أسئلة، فيبتسم مُشجعًا صديقه على الكلام...

- أنت والله أحبُ إلَيَّ من نفسي، فقد جمعتْنا الليالي والأيام، وتعجبَ الزمن من قوة رابطتِنا، كان حب الله ورسوله وآل بيته وِجَاءَ صداقتنا حيالَ نوائب الدهر، والآن أنت شارد، تنتظرُ أمرًا ما، لا أكاد أُحدِّثُك حتى تغيبَ عنِّي في لُجّيّ خواطرك، دانت لك البلدة وما جاورها شيخًا لا تُرَد له كلمة، وكنتُ سندك وصفيَّك، والآن تفكر منفرِدًا... فاتحت ابنك السيد في أمرك، فقال لي إنك تبحثُ عن شيخ! كيف يا عيساوي وأنت الشيخ؟

- الرحلة يلزمها شيخ يا حلمي، لم تزد مشيختي عن أحوالٍ، مجرد أحوال، وعلم باطني موهوب، بدون سندٍ حقيقيٍ من علم الظاهر، هي الرؤيا التي تلاحقني كرسالةٍ تُلَقَّنُ لي كل ليلة يا حلمي، جبة فخيمة من الجوخ الفاخر، أحدث نفسي بارتدائها، ولكن حينما أرتديها لا تصل إلا لركبتيّ، احترتُ كثيرًا في تفسير الرؤيا، حتى زارني حبيبي، (يردد العمدة حلمي الصلاة عليه والسلام)، معه كتابٌ ويشير لشيخٍ على رأس حلقة علمٍ كبيرة، تتبدى ملامحهُ لي بوضوح أستطيعُ وصفَهُ

لك، رؤيا كأنها فلق الصباح وضوحًا ما هي إلا رسالة يا حلمي، لم أكتمل بعد؛ ما جدوى خضوع الناس لي؟ وهل مثلك يا حلمي من يرضى لي تجاهل رسالة سيدنا النبي من أجل مظاهر غلبة لا قيمة لها، وسطوة ستشهد علينا لا لنا يومًا؟ بِتُّ أشكُّ في حقيقة خضوع الناس لي، هم يخضعون لي لحسبي وجاهي وغناي، لا لشيء غير ذلك، لم يُرِد لنا جدكُ النبي ذلك، لسنا مثل أولئك الذين يملكون الأرض ومن عليها، نحن لا ينبغي أن يدين الناس لنا، كما دانوا قبل ذلك لجدودنا من أجل سطوة ولكن ....

- قلتَ إنَّك تشك، هو مجرد شكٍ لا يقين فيه، يدينُ الناسُ لك لولايتك ولخيريتك، ولدينك ولبرك، لستَ كغيرنا من أولئكَ الذين يسوقونَ الناسَ بالسياط..
- كل ذلك بدون شيخٍ، وسندٍ لجدك النبيّ، كالكتابةِ على الماء...

(يُطرَقُ الباب طرقًا خافتًا) ...

- هل تنتظر أحدًا في تلك الساعة يا حلمي؟!

2

ينهض العمدة حلمي مسرعًا متعجبًا مِن الطارق في تلك الساعة المتأخرة، ولكن العيساوي شعرَ بوقعِ تلك الطرقات الخافتة تمس شغافَ قلبه، فنهض مطمئنًّا وكأنه يستقبل حبيبًا طالتْ غيبته، وبغتة قدومه؛ وحينما فُتح الباب، كأن عُمرًا جديدًا قد بدأ، وما زاد من عجب العمدة حلمي أن الطارق قد ناداهما باسمهما وهو لم يقابلهما يومًا، ولكن العيساوي قد سارع في استقباله ومناداته باسمه كأنما قد توثقت المعرفة بينهما دهورًا..

- مَن الشيخ؟

(يسارع العيساوي)

- ألم تعرفه بعد يا حلمي؟ هو المراد المنتظر...
- هو «هو»؟
- نعم هو...

يتداخل الطارق في الحديث:

- أنا محمود البنداري.

وكأنَّ اسمه ذِكرٌ هام به كلاهما، لتنقلب برودةُ تلك الليلةِ الشتويةِ إلى دفئ شمسٍ ظهرَتْ فجأةً في سماء عالم الأرواح، وحبٍ باغتهما بدون سبب غير وجوده.

كان الشيخُ قد تدثَّر بعباءة علت عمامته وجبته وسائر جسده، ليبادر بخلعها ليضعها على كاهلهما ويمسك بطرفها في يده ويشرع في القراءة لأوراد وآيات قرآنية، يستمعان لصفير سِينِها وصادها، هو قد أتى إليهما على أتانٍ من طنطا، «هو ذا ملِكُك يأتيك وديعًا، راكبًا على أتانٍ»، ليدخل الشابُ سيد عليهما، وكأنهم جميعًا كانوا على ميعاد.

يهتف مُرحِّبًا به، مستفسرًا عن كيفية قدومه، ومعرفته لطريق البلدة ولعنوانهم، لينهرهُ أبوه متلطفًا أن يكف، فمثلُ الشيخِ لا يُسأل مثل هذه الأسئلة، والحقيقةُ أن السيد كان يدركُ سذاجةَ سؤالهِ، ولكن كانت تحدوه الرغبةُ فقط في التحدث إلى شيخه الذي قابله مرة واحدة، ووعده بالقدوم بدون سؤالٍ عن بلدةٍ أو عنوانٍ أو حتى عن اسمٍ أو صفة، الحقيقة أن المحبة والألفة قد بددتا كل مشاعرِ العجب والرغبة في الاستفسار عما يُستَفسَر عنه في الغالب.

- أَعرفكم مِن ساعة مولدكم، أَعرِفكم منذ خُطوكم الأول، أعرفكم وقد كنت منتظرًا أن يسمح القدرُ باللقاء، عرفتُ حيرتك يا عيساوي، وعرفتُ بحثكَ عني سنين يا سيد، وعرفت

عجبكَ يا حلمي، هلموا وارتعوا في سماوات المحبة، فقد حان الوقتُ وبدأت السطورُ في الانسياب.

يعطي العهدَ للعمدة حلمي أَوَّلاً، ففي بيتهِ تقابلوا، ولما سُأِل الشيخ قال: «كذلك تُؤتى البيوتُ من أبوابها» ولأن فضل الله يتنزلُ بلا سببٍ، ولا يخضعُ لمنطقٍ عقليٍّ يُحتذى به، لذا لُقِّبَ العمدة حلمي بالبَكرِي، ثم ثنَّى بالعيساوي وابنهِ السيد، فتنقلب علاقةُ الأبوة والبنوة لأخوة في طريق المحبة.

من غير سؤال، ومن غير استفسارٍ يسلمون قلوبهم لشيخهم محمود البنداري.

إلا أن الشيخ هتف: «كن.. وكن..»، فإذا بالباب يُطرق طرقات متسارعة متقاربة.. «أفتح يا بكري..»

فإذا هما بالشيخ محمود أبو جمالة، صاحب مقرأة البلدة، ومحفظ صبيانها، والشيخ محمد بسيوني، خادم ضريح ومسجد سيدي حمزة، وإذا بهما يسارعان في مصافحة الشيخ البنداري وتقبيل يده، والشيخ ينادي كُلاً باسمه؛ لم يعد العجب ومشتقاته من مفرداتٍ تَرِد بخاطر البكري، فقد شهد في داره الليلة الكثير جدًا، لم يعد غير التسليم يحيط به من كل جوانبه.

كان وِرد كلٍ من الإخوة مختلفًا عن الآخر، وكأنَّ الشيخ كان يُلقَّن من غيبٍ ما، فأما البكري العمدة حلمي فكان وِرده الصلاةُ على خير البرية وآله، أما العيساوي فكان وِرده التسبيح والتهليل ولزوم الخُلوة لحين، والسيد أصبحَ شُغله ووِرده العلم وطلبه حتى بلوغِ ذروتِه، وعن أبي جمالة فكان وِرده القرآن ولا وِرد له غيره، ولم يتعدَّ وِرد الشيخ محمد بسيوني التفاني في خدمةِ ضريح سيدي حمزة ومسجده هناك في أقصى شرق البلدة، حيث حوض سيدي حمزة.

خرجوا جميعًا لصلاة الفجر الذي أوشك أن يُسفر، كانت وجهتهم الجامع الكبير بغرب البلد، تجمعت طيورٌ خُضرٌ لم يرها الناس من قبل على أفرعِ الأشجار المحيطة بالجامع، التبست رؤيتها بخضرة الحقول الممتدة على مدى البصر، لتغزو أفواجٌ من طيور أبي قردان هذا الخضار الممتد بأجنحتها البيضاء الزاهية، متوافدةً بأعداد لا تكاد تحصيها العيون مجتمعة، لتقف أعلى المئذنة، وتسيل كالزبد الأبيض أمواجا متلاحقة على سطح الجامح. وغيمات بنية تأتي من الشرق، مسابقة شروق النجم الملتهب حرارة، يهب دفئه مصالحًا النسائم المنكمشة من برودة ليل شتويّ صِرّ، تبيَّنَ بعد قليلِ فحصٍ أنها يماماتٌ تسارع حتى لا تفوتها تكبيرة إحرام الصبح، توقظُ الجميع هاتفةً: «وحدوا ربكم»، ليستيقظ كل نائمٍ ونائمة، يتسابقون وكأنهم على موعد... لتصافح الثعابين مخالب الصقور، وترافق الفئران القطط،

والذئاب الغنم، والدواجن الثعالب، يلهج الجميع بذكرٍ حميميٍّ خاص، توحدها أنفاسُ الوجد والشوق، لتقام الصلاةُ ويؤمَّ البنداري الجموع من بشر، وطيور خضر، وأبي قردان، ويمام، وثعابين وصقور، وفئران وقطط، وذئاب وأغنام، ودواجن وثعالب، كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه، وسُمِّي هذا اليوم بيوم الفتح البنداري.

إلا أن الشمس قد أبت الغروب، واستمر هذا اليوم شهرًا ونيف، لا تغرب عنه الشمس ولا تأفل الأنوار. فاحتار الناس هل يسمونه يومًا أم شهرًا؛ فقال الشيخ: «هو يومٌ بشهر، واليوم عند ربك بألف سنة مما تعدون».

وجدت نفسي مدفوعًا للتداخل في الأحداث، مع فهمي التام الذي يشبه الحدس، أنني مجرد ضيفٍ غير مصرح له بالحديث أو التعليق على ما يجري أمام نواظري؛ فمنذ دخولي عالم الأسوار العالية فقدت قدرتي على الكلام، إلا أن الشيخ محمود البنداري، هذا الولي الطارئ على تلك القرية البعيدة المنسية، والتي تحولت لمسرح أحداث غريبة منذ ولجها بقدميه، قد رحم غربتي، فنظر إلى مبتسمًا رحيمًا، وأخرج من جبته كتابًا قديمًا، أصفر الورقات، عنوانه «المنظومة البندارية»، وإذا بسيدي محمد البسيوني يأخذني من يدي ويجلسني تحت جميزة عتيقة، تحتضن فروعها العملاقة قبة ضريح سيدي حمزة كأنها يد زائر تتبرك بلمس ضريح مبارك؛ فتحتُ المنظومة وشرعتُ في القراءة.

كانت البداية سيدي أحمد البدوي، القطب العظيم، والوتد الشهير بين رفاقه الأوتاد الثلاثة، جاء بوصية من سيدي أبي عبد الله الحسين لمصر، حيث مكث على بابِه شهورًا قبل أن يدخل الروضة المباركة.

شُيِّدَ عمودٌ شهيرٌ بالمكان الذي وقف فيه، سُمِّي عمود البدوي؛ ثم انتقل إلى طنطا حيث أقام أيامًا وشهورًا طويلة فوق سطوح أحد أحبابه، وكان له من التأثير العظيم على مجريات سير الأحداث في مصر والعالم الإسلامي في تلك الفترة العصيبة، فكان وسيطًا مقبولًا بين المصريين وحكامهم، وحلقة وصل بين السماء والأرض.

ولما شاع صيته تجمع حوله رجالٌ كالجبال رسوخًا، كان منهم الشيخ عطية البنداري من أكابر وعظماء الشرقية، وهو جد الشيخ محمود البنداري الأكبر، ومنه نال البركات والمدد، ولُقبَ تلامذة البدوي الأولون بالسطوحيّين، فكان عطية السطوحي البنداري من أوائل من أخذ العهد على يد سيده البدوي، حتى أن عطية لقب شيخه البدوي بأبي الفرحات، وهو لقب لا تسمعه إلا في أوساط البندارية الأحمدية حيث قال في منظومته:

إِلَهي تَوَسَّلْنَا إِلَيْكَ بِسَيِّدي أَبي الفَرَحَاتِ القُطْبِ كَعْبَةِ مِصْرِنَا
هُوَ المُرْتَجَى بَابُ المُطَهَّرِ أَحْمَدٍ مُجِيرُ الأَسَارَى مِنْ مَكَابَدَةِ العَنَا

وكان سيدي عطية نِعْم المريد ونِعْم الشيخ، لا تَنسىٰ مواكب التاريخ هذه القافلة العظيمة الخارجة من بوابات الشرقية (موطن أبعديات

وعزب السادة البندارية) محملة بالخير كله، قاصدة طنطا حيث مقر الأستاذ، قدَّسَ اللهُ سره، حتى انتقل السيد البدوي إلى جوار ربه، فتعاهد تلامذته الأوائل -بعد توديعه- على اللقاء كل عامٍ بعد موسم حصاد القمح، فكان احتفالُهم أول مولدٍ يُقَام بأرض مصر، فلما عَظُم الشوق تعاهدوا ثانية على لقاءٍ سنويٍّ ثَانٍ، على أن يُعْقَد في شهر رجب الفرد، فكانت الرجبية.

وهكذا ظل سيدي عطية في توادٍّ ومحبة لم تنقطع، وتلقٍ وصحبة مع سيده البدوي لم تنفصم ببرزخيه السيد، وفي ليلة زاره البدوي على رأس موكب من الأرواح، وقد رفعوا الرايات الحمراء مبشرين سيدي عطية بالقطبانية، فوجد في صباح تلك الليلة أبياتًا قد زيدت في المنظومة أولها:

بِمَوْئِلِنا البِنْدارِي خَيْرِ عَطِيَّةٍ فَنَوَّلْتَهُ مِنْكَ المَكَارِمُ والمُنَا
هُوَ المُفْرَدُ الغَوْثُ الذي مَلَأَ الوَرَى بِأَسْرَارِهِ مِنْ حَضْرَةِ القُرْبِ والفَنَا
وَلِيٌّ أَجَلُّ الأَوْلِيَاءِ مَكَارِمًا سَقَاهُ إِلَهُ العَرْشِ رَاحًا فَدَنْدَنَا

إلا أن الشيخ عطية القطب البنداري شعر بأن الدنيا ما عادت له بوطنٍ ولا مستقر، فلم يعد يبارح خلوته إلا للقاء المولد، والرجبية الأحمديين.

3

وكان عزيز بن السيد عطية البنداري متوليًا لكافة شئون العِزب، والأراضي الواسعة، والالتزامات الشاسعة، وتصريف أمور الزراعات والأموال، والوارد والمنصرف، وكان حلقة الوصل بين أبيه الوليّ المحتجِب، والحكام من مماليك الإقليم والعاصمة.

وكان عليّ بن السيد عطية البنداري سِر أبيه وخادمَه، يستيقظ مبكرًا، يشعل النار لإعداد طعام الإفطار لأبيه وتدفئة مياه وضوئه، والبِر بمريدي الشيخ، ومتولي ديوان فقراء ويتامى ومساكين الإقليم، ورعاية من انقطع للعبادة، في خلوات طينية، تحيط بخلوة أبيه.

كان أحدهما عقل أبيه والثاني قلبه؛ ولم تكن الدنيا عند السيد عطية غير وسيلةٍ، وممرٍ إلى آخرته، ولم يكن من شيء يشغله عن مآله، ولقاء ربه، والورود على حوض نبيه، كان الفرح بالقرب جَمالًا يغشى روحه وقلبه، فتفيض يداه بالإحسان كأنه ريح مرسلة، متشبهًا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن من شيء يؤرق لياليه سوى بعدَه عن روضة سيده البدوي، وقد حان وقت مولده... وتقدمت به السنون، ولم يعد

بعدُ من جهد لديه، ولا وافر قدرة على الرحيل.

وكان الوقت زمنَ خليفة البدوي سيدي عبد العال. وكان الأخيرُ نفحةً علوية، ورحمة ربانية لتلامذة البدوي ومريديه، ولولا عبد العال لهلكوا شوقًا لحبيبهم وأستاذهم البدوي، ولتَغَشَّاهم الحزن حنينًا لسيدهم ووليهم الأحمدي. فكان عبد العال منجيهم من استبداد الشوق فالهلكة، وسلوتهم من الحنين، والغرق في بحار الحسرة. يذكرهم بسيدهم، ويسير فيهم بسيرته، فكان عوضهم عن سيدهم وسندهم.

فكان عليّ رسول أبيه لروضة سيده، وقائد قافلةٍ محملة بكل ألوان الخير والنعمة، وجهتها «طندتا» (طنطا)، ورسالة شوقٍ ومحبة من أخٍ لأخيه.

وكان وقت تجديد الالتزاماتِ وتسديدُ الضرائبِ والحسابِ قد أزِف، وكانت الدنيا قد دانت لـ«علي بك الكبير» شيخ بلد مصر، والمتحكم في سياستها، ودفة حكمها، وكان عبد العال قد بشَّرَهُ من قبل بتلك المنزلة، في وقتٍ اشتدَّ فيه المماليك يطلبون رأسه على عادتهم وقتَ خلافهم، واستضعافِ فريقٍ لفريق منهم، فآواه عبد العال وأحسن إليه في شدَّتِه، وبشَّره أنَّ مشيخة البلد ستكون من نصيبه، فتعجب علي بك الكبير وقال لنفسه: «كيف؟ والطِّلابُ قد اشتد على رقبتي، ولا أمنَ لي، ولا مستقرًا أَكِنُ فيه»، فكان حالهُ بين النكران والإيمان، وما عليه،

فلعلها بشرى والشيخ واضحُ الصلاحِ، ويقال عن شيخه العجب! فلعله ينال بقربه الفلاح.

ولمَّا تحققت البشرى، جاء علي بك الكبير لعبد العال عارضًا عليه الدنيا من مالٍ ومنصبٍ وقربٍ وجاه، فضحك عبد العال وقال: «لم تكن يومًا لنا بطلب». فقال: «إذًا كيف أكافئ سابق معروفك، وعطاء يدك؟!» فقال: «هذا مقام سيدي ومسجده، فانظر كيف ينبغي أن يكون حالُه». فوسَّعَ علي بك الكبير جامع البدوي وزخرَفَهُ، حتى كان أعجوبة زمانه، وأهدى ضريحه مقصورةً نُحاسيةً بديعة الصنع، بهيجة المنظر؛ وأعدَّ لعبد العال برزخًا منيفًا، ومقصورةً خشبية منيرة مقابلةً لروضة البدوي، إذا حَمَّ القضاءُ، وحان الأجل.

وجاء حاكم الإقليم وجنوده للحساب، فاستقبلهم عزيز بالهدايا، على عادة أعيان وملتزمي زمانه، ودُقِّقَ في الحساب وإحصاء الضرائب، وعُدَّ الذهب والمُنجَلِب، فكان أوفى التزامًا، وأدقَّ ضبطًا؛ إلا أن الحاكم قد سأله عن والده السيد عطية، وعبَّر عن رغبتِه في لقائه. فتحرَّج عزيز من الاعتذار إليه بانشغال أبيه بخلوته وتسبيحه وصلاته؛ ولعلم عزيز باعتزاز هذا المملوك بنفسه، وقسوته إن رُدَّ له طلب، وكيف سيقولون إنْ اعتذرَ الشيخُ عن مقابلته. فقال لنفسه (وما عليه إن خرَجَ من خلوته للترحيبِ ومقابلةِ الحاكم، وحِفظ ماء وجهِه، وصَونِ رجائه وطلبِه!).

3

وكان من عادة الشيخ ألا يَدخلَ عليه أحدٌ خلوته غير عليّ، وعليّ قد ذهب لـ «طندتا»، فما العمل؟! فكتب عزيز رسالةً لأبيه يخبره برغبة حاكم الإقليم في التبرك بمقابلتِه، ومن خَلَلِ باب الخلوةِ أسقطها، فرد عليه الشيخ بورقةٍ لم يكتب فيها غير عبارة: «أأخرج من معية الحق، لمجاملة الخلق؟!».

ولما تعذَّرَ اللقاء، حسِبَ الحاكم أن في ذلك تحقيرًا لمقامه، واستصغارًا لشأنه، وإهانةً لمركزه، فغضب وتوعَّد وهدَّد، وأَرغَى وأَزبَد، وأمَرَ أن يأتيهُ عزيز من غده بالدفاتر، وأوراق الالتزام، وحدود الجَفَالك والأبعاديات، وكان معنى ذلك في عُرفهم سحبَ الالتزام منهم.

✠

وقع عزيز في حيرةٍ شديدة... ماذا يفعل والشيخ قد أغلقَ دونَهُ خلوتَه؟، هل يسلم الالتزام، أم يلحق بالحاكم راجيًا!، ولكن الشيخَ قد أرسلَ إليهِ للقائِه، ولما قصَّ عليهِ عزيز القصص أمرهُ أبوهُ بترك كل شيءٍ واللحاق بأخيه إلى رحاب البدوي.

والحقيقة أن عزيزًا لم يكن بأقلِ من أخيهِ ورعًا ومحبة، فهما صِنوان من أصلٍ واحد، إلا أن ما أُلقي على كاهله من نعومة أظفاره لم يكن بالشيء الهين، فغلَّبَ فيه النزعة العملية، والحنكة في تدبير الأمور، ومسايرة ما يجد من أحداث؛ وعلِم السيد عطية ذلك، فكأنما أراد أن يُروّحَ عنه، ويريهُ من آياتِ ربه.

وصل عليّ إلى رحاب البدوي بأول أيام المولد، بعد رحلةٍ غيَّبَ تفاصيلَ مشقتها شوقٌ لا ينقطع وحنينٌ لا يزول. نزلَ أولاً يتفقد سيده عبد العال ويبثه محبته، ويسلمه رسالةَ أبيه، ثم وصل الشوق بالشوق فتوجه إلى ضريح البدوي يبثه لواعج حنينه.

وصل عزيز في الليلة الختامية من مولد البدوي، ليجلس بجانب أخيه في حضرة سيدي عبد العال، ويدخل بعدها على إثره موكبٌ كبير، على رأسه علي بك الكبير ذاته، وحكام الأقاليم، وعلى رأسهم حاكم الشرقية.

وبعد انتهاء الحضرة يدنو علي بك الكبير من السيد عبد العال يسأله أن يأمره بما يرضيه، فيجيبه عبد العال مشيرًا نحو عزيز وأخيه: «سَلْ حاكم الشرقية عن سبب غضبه!»، فيشير إليه علي بك... وما أن تقع عيناه على عزيز حتى يعلم سبب استدعائه، فيقول: «والله ما طلبته إلا لكي أضاعف التزامَه»، فيبتسم عزيز راضيًا مرضيًا، ويوجه عبد العال حديثه للجميع: «اعلموا أنه لا يزار وليٌ إلا بإذنه، وما أدراكم من هو عطية البنداري»

وعندها سألتُ الشيخَ: «كيف تجتمعُ الولايةُ مع كل هذه الدنيا؟» فقال: «كانت الدنيا كلُّها بأيديهم، وجافتها قلوبهم...»

4

كان يصرخ ملتصقًا بفرع الجميزة العتيقة، وكلما مرَّ عليه نفرٌ سلقوه توبيخًا... كيف يجرؤ على انتهاك حرمة حوض سيدي حمزة! وكان حوض سيدي حمزة تعلوه مهابة، ويسوده غير قليلٍ من حزم وشدة، خاصة منذ مجيء الشيخ..

وسيدي حمزة، كان من ولد أحد الصحابة، وهو من الشخصيات القديمة قدم القرية والمنطقة ونشأتها، جاء مرافقاً جيش الفتح بقيادة سيدي الإمام محمد بن الفضل بن العباس، الملقب بسيدي شبل الأُسُود، وهنا أسلم الروح الطاهرة... حيث لا يفصله عن ضريح سيدي شبل الأسود إلا بضع كيلومترات.

وكان أهلُ حوض سيدي حمزة يرون في بعض الليالي فارساً عملاقًا بزي المحاربين العرب القدامى، يتجول ليلاً على صهوة جواده، يغيث ملهوفًا، أو ينهض نحو صراخ امرأة تستغيث، أو يجيب بكاء طفل جائع. كثرت الأقاويل عن بطل تلك الحوادث، وكلهم أجمع على كونه سيدي حمزة.

✠

ها هو العيساوي يدخل خلوته بعهدٍ جديد، وأمرِ شيخٍ طالما انتظرَ أمرَه، مع قليلِ زادٍ، وندرة دنيا (على الرغم من وفرتها) وتسبيحات وتهليلات وصلوات بلا عدد ولا انتهاء، ألقى الحياة وراء ظهره، يأمل أنوارًا سرمدية من سماوات خالدة، قديمة. كم سيمكث؟ لا يدري... ولا أحد يدري.

ولم يفتر لسان العمدة حلمي البكري، مُرددًا الصلاة على النبي - بالصيغة التي أمره الشيخ بها- طيلة نهارِه، وهو يزاول أعماله، ويحكم بين الناس، ويقضي مصالح الخلق، وما بقي ويقظته من ليل، وحينما تنام عيناه، كلما زاره النبي في الرؤيا، يحدثه ويحدثه، لكنه يومًا ما أفصح عمَّا دار ويدور؛ كان دومًا يتعلل بكونه سرًّا. وإن غاب النبيُّ ليلة عنه، قضى النهار كله مريضًا في فراشه يتأوه ويبكي، كأن المرض والحمى يضربانه بلا هوادة، فيعوده الناس.

ولم يرفع أبو جمالة عينيه عن مصحفه، لحظة أن تسلَّم يَد الشيخ مُعاهِدًا، وكلما قرأ آية تفتحت عوالمها عِلمًا وفهمًا ودرايةً، كتفتح زنبقة تستقبل أول شعاع شمس محمل بقطرات ندىً يخرج منتشيًا من رحم الصباح.

أما السيد العيساوي فلم يقر له قرار، لا يمل الترحال، مُحصِّلًا مُدقِّقًا، وعارفًا لم تُروَ غُلَّتُه، ولم تُقضَ نَهْمَتُه، يطلب العلم من كل

مظانِّ وجوده، ينتقل للقاهرة ينهل من علماء أزهرها وحسينها وسيدتها الزينبية.

كان الشيخ صالح من زملائه المجاورين بالأزهر، وكان من دنقلة النوبة، أسمر كمسكٍ يفوح، يقطرُ شبابًا وفتوة، كان صديقَه المقربَ والمحبب. فكان يؤنس وحدته ويشجع طلبه، فما كان يُرى الشيخ سيد في القاهرة إلا مع الشيخ صالح، يجوبان الأعمدة، ويتلقيان البركة، ويتقاسمان اللقمة وشربة الماء. كان الشيخ صالح الجعفري نعم المعين والرفيق، وكان الشيخ السيد العيساوي نعم المحب والصديق، قربت الأيام بينهما كأنما يُعِدهما الله لأمرٍ كان مسطورًا.

وكان صراخ اللص قد انقطع يأسًا من الخلاص بعدما التصق بفرع الجميزة العتيقة، ليوبخه أحد المارة: «هذا جزاء من استباح الحِمَى بدون إذن، انتظر حتى يأتيك الشيخ محمد بسيوني..».

ومنذ استلامه العهد من شيخه، وقد تحول حوض سيدي حمزة لحرمٍ، مفقودٌ من انتهك -بَغْيًا وعُلُوًّا- حُرمته.

يأتي الشيخ بسيوني ويُوبخ السارق ويلومه على فعلته، ويوصيه بالإذن إن أراد حاجة، ولن يحرمه أحد... فالمال مال الله، والزرع والضرع له وحده، ولما ندم الرجل خلص آمنًا سالمًا.

4

عَمَّر عطية الأكبر السطوحي الأحمدي البنداري أعوامًا طويلة جِدًّا ملأ الأرض استقامة وبرًا، ورزقه الله بولدٍ وديع، من أمٍ غير والدةِ عزيز وعليّ، الراحلة من زمن، فسماه جاب الله.

فرح به الشيخ الجليل فرحًا عَظِيمًا وكذلك فرح محمود وعزيز، وكانوا له بمنزلة الآباء لا الإخوة عطفًا وحدبًا. وحينما شب جاب الله لازم أخاه عَلِيًّا ولم يفارقْه، وانتظم جاب الله في بيت عليّ كابْنٍ من أبناءِه.

وكان جاب الله بارًّا عطوفًا طيبًا، أشبه الناس بأبيه عطية قوة وحزمًا، وبسلوك أخيه عليّ لينًا ووداعة... وذات ليلة استدعى عطية أولاده (عليّ وعزيز وجاب الله) وكان الأخير قد بلغ من العمر ثلاثين عامًا، وكان عزيز على أعتاب السبعين عاما، ولم يتجاوز عليّ الخامسة والستين إلا قليلاً... لم تفتَّ السنون الطويلة في قوة عطية أو رجاحة عقله، وحزمه وصلابة إدارته ورشدها...

أخبر أولاده برؤيا، رأى فيها السيد البدوي يخبره بميعاد حضوره الديوان، وأنه سيكون فجر الغد، وأنه اختار جاب الله خلفًا له، وشيخًا للطريقة؛ وسوف يكون عليّ وعزيز وزيراه، وأعوانه وقوته.

حزن الإخوة حزنًا شديدًا على قرب فراق أبيهم، فمعنى تحديد موعد الديوان بفجر الغد أنه قد اقترب الأجل وتحدد الميعاد؛ ليس اعتراضًا، وإنما لوعة الفراق وحسرته.

سهر الأخوة الثلاثة على أعتاب خلوة أبيهم، ينتظرون قدرًا محتومًا... وحينما أطلت تباشير الصباح بالمشرق البعيد، فتح لهم أبوهم العطية الأكبر، يجتازون باب الخلوة فتستقبلهم روائح مِسكية لم يعرفوها من قبل...

كانت الخلوة مزدحمة بأنوارٍ لم يدركوا مصدرها، ولم تلبث الأوراد البندارية إلا وتُليت من مصدرٍ غير معلوم، ثم حديثٌ طويلٌ بين الأب وأشخاص قد أقبلوا ولم يرهم غير أبيهم... وكلما مر الوقت ازدادت رائحة المسك فوحًا، واكتظت الخلوة بالأنوار، حتى أذَّن مؤذنٌ لصلاة الصبح، وصلى أبوهم مأمومًا بخير البرية، وصلى أولاده مأمومين بأبيهم...

وحينما سلَّم العطية من صلاته، سلَّم على الثلاثة، وأخبرهم بأن الخلوة ستكون مستقرهم جَمِيعًا حتى يتصل المدد لقيام الساعة، وحفر الثلاثة لأبيهم برزخه وبرزخهم، ولم تغب عن مسامعهم تسابيح علوية كألحان شجية سماوية، لم يترك أحدهم مِسْحاته حتى ليجفف دمعا، أو يكتم آهة حارة، من ساعتها غربت الشمس أيامًا طويلة، وطالت الليالي، وبكى القمر طويلاً، وناحت الأرض موضع سجود العطية الأكبر، وكان لها صوتٌ مسموعٌ لم ينقطع من موضع الخلوة، حتى أذن له ربه بالانقطاع.

لم يفكر علي للحظةٍ في أن جاب الله قد تخطاه، لم تخالطه أي مشاعر سلبية من تلك التي تفرضها الأَثرة والأنانية، فكان خير سندٍ ومعلم لأخيه الشيخ الشاب الطيب النابه، وكان عزيز في خدمة أخويه اللذين تفرغا لأعباء الدعوة لله، ومحبة آل البيت والخدمة.

سار الشيخ جاب الله البنداري سيرة أبيه عطية الأكبر، وفي عهده توسعت الطريقة البندارية الأحمدية توسعًا كبيرًا لتفوق أخواتها من الطرق الأحمدية مجتمعة.

ولحق عليّ ببرزخ أبيه بعد سنوات معدودة، ليقرص الحزن قلب الولي الطيب، ويحتجب في خلوته شهورًا، لتأتيه البشرى بعد حين... فقد رزقه الله بولد فيسميه جاب الله عَلِيًّا، تيمُّنًا باسم أخيه العزيز الراحل.

✠

ولما سألتُ الشيخَ... كيف قد اجتالتهم تلك المشاعر البشرية من حزن وفرح ولوعة، وهُمْ على تلك الدرجة العالية من الولاية والقرب، فقال لي: «انظر إلى حال نبيك... كيف فرح بمقدم ولده إبراهيم فطاف به على أصحابه يغزو الفرح قلبه، ويغزو بقلبه الفرح... «انظر يا أبا بكر، هذا ولدي إبراهيم»، وكيف حزن على فراقه.. «وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون» يحزن يا ولدي القلب... ولا يسخط، فالحزن قدرُ الأخيار في أرض الله، وتنصاعُ الجوارحُ لقدر الملك الرحيم، فكانَ المثل

الأعلى في كمالِ البَشرية وذروةِ الخشية لربه في أحزانه وأفراحه، صلى اللهم وسلم وبارك عليه وآله وسلم».

✠

وكلما نسي الدنيا، أقبَلَتْ عليه عوالم جديدة لم تخطر له يومًا على بال، نعم قد دخلَ الخلوة قبل ذلك أكثرَ من مرة، ولكن كان دخوله اجْتِهَادًا من نفسه، بدون أمرِ شيخٍ أو مشورته، هذه المرة مختلفةٌ عن كل مرة، يبدأ يومه بصلاة الصبح، ثم يردد وِردًا طويلاً من التسابيح ينقضي مع ضحى اليوم، ثم صلاة الضحى -مثنى مثنى- حتى صلاة الظهر، فتهليلٌ إلى صلاة العصر، ثم قراءة قرآنٍ إلى صلاة المغرب، ثم يكسر صيامه بشربة ماءٍ ولقيمات يابسة وبعض من الملح، ثم يشرع في تلاوة الأوراد البندارية التي أمره بها الشيخ حتى صلاة العشاء، ثم ورده من صلاة الليل..... ثم يريح جسده بقليل نومٍ، ثم ينهض لتهجدٍ ينتهي مع أذان الفجر.

وكانت الخلوة في أقصى فناء داره، أشبه ما تكون بصومعة مخروطية الشكل، تحيط بها أشجارُ فلٍ وياسمينٍ من كل جانب، وكلما طالت خلوته يومًا، نمت على مقربة من جدرانها الطينية شجرةٌ من أشجار الورد البلديّ، والغريب أن الشجرة كانت تنمو نموًا سريعًا في يومٍ واحد وفي نهايته تزهر بورود بيضاء وحمراء وصفراء ووردية... وفي بعض

الأحيان بنفسجية في شجرة واحدة، ومن المعلوم أن كل شجرة من الورد البلدي تستقل بإنتاج لونٍ معين فقط من الألوان سالفة الذكر.

ومنذ دخلَ العيساوي خلوته، انقطع عن الدنيا وانقطعت الدنيا عنه، وانشغل ولده السيد بدروسه في القاهرة، والبيت والدوار والساحة في حاجةٍ لأموال، والمريدون والمنقطعون للعبادة واليتامى والمساكين وأولاد السبيل في حاجةٍ إلى من يطعمهم، وكلما رجع الابن إلى القرية باع قطعةً من الأرض؛ وهكذا كانت تمرُّ أيامُ انقطاع العيساوي بخلوته... يتجرد من متاعِ وزينةِ الحياة.

ولمَّا كانت الخلوة في أقصى فناء داره، مطلةً على شارعٍ جانبي، من شوارع القرية الضيقة، ترامتْ إلى مسامعهِ كلماتٌ مفادها أن بقرةً أثيرة على قلبه قد تعثَّرتْ في سيرها فكُسِرَتْ، تحرَّك قلبُ العيساوي لأول مرة بالدنيا منذ دخوله الخلوة... طردَ العيساوي خواطره مستعيذًا من الشيطان والدنيا بالله الرحمن الرحيم، واستمر في عبادتِه وتسبيحِه وصلاتِه.

وبعد أيامٍ، جاء الشيخ محمود البنداري يتفقد أمورَ مريدِه الطيب، وكان موعد قدومه إيذَانًا بانتهاء فترة خلوته، توجه مباشرة بعد استقباله إلى الخلوة حيث العيساوي...

طرق البنداري بابَ الخلوة، فطارَ قلبُ المريد لشيخه شوقًا، عرفت أذنه طرقات الشيخ، ووقعها -كصوت ارتطام حبات مسبحته- محفوظٌ في ذاكرته منذ طرقاته الأولى يوم مجيئه الأول.

حاول الخروج من باب الخلوة الذي دخل منه منذ شهورٍ، إلا أنه لم يسع جسده... كيف وقد كانَ في صيامٍ مستمرٍ، وقوته لم يتعدَّ كسراتٍ من الخبز والملح، ولمَّا سألت الشيخ عن ذلك قال: «ألم تعلم أنهم في آخر الزمان -حينما يحاصر الدجال العصبة المؤمنة- سوف يكون قوتهم التسبيح والتحميد والتهليل؟!، وما بالك بمن كان مع نبيه، ألا يطعمه ربه ويسقيه؟!»

جاء الفلاحون بفؤوسهم يوسعون الباب ليخرج العيساوي، ويستقبل شيخه متشوقًا كشوق أبي بكر لحبيبه، يحتضنه الشيخ ويسأله عن أحواله، ويخبره بأنه قد دخل معه الخلوة رجلان، أحدهما حضريّ والآخر مُضري... نجح الحضري والمضري، وتعثرت أنت يا عيساوي، تقبل العيساوي نتيجته بصدرٍ رحبٍ فرح، فمع رؤية الشيخ تهون كل ملمة. فبادره الشيخ مستفسرًا عن عدم سؤاله عن السبب، فأجاب لأنه قد رضي برؤيته، فابتسم البنداري: «تعثرت يا عيساوي حينما تحرك قلبك، وتذكَّر الدنيا بسماع أخبار بقرتك الأثيرة»، وأمره البنداري بدخول الخلوة ثانيةً لتوه.

5

بزغ الصباح نورًا وليدًا، ولاح في السماوات في ضآلة نجمٍ تفصله عن الأرض مئات السنوات الضوئية، يصارع جحافل الظلام المنتشر، المحيط به من كل جانب، وبمرور كل ثانيةٍ يكتسب فسحةً ضئيلة... يدب ببطء، بثبات وفتوة... غير عابئٍ بكل ما يحيط به من ظلامٍ يود وأده، إلى أن تم الضياء أخاذًا، وبقوةٍ بدَّدَ كلَّ ما أحاط به من ظلمات، فملأ الأرض بهاءً وسناءً، وانغمس في مياه النيل المتدفق موجةً موجة، فانعكس تلألؤًا على وجه الجالس منفردًا بمسبحته، هائمًا في سماوات العشق والفناء.

ومع استغراقه في وِرده، كان يتهادَى برياضِ ذكريات أبيه الشيخ عطية، وأخويه عليّ وعزيز، مضت سنونٌ ممتدة منذ انتقالِ عليّ، ولَحَاقِ عزيز به، اشتاقَ لحكمة الشيخ، ولرأفة عليّ، ولحزم عزيز، أصبح غريبًا عن الأيام، فريدًا بين الخلق، وإن أحاطوا به...

على رأس عشرينَ حِجَّةٍ مضت، أَتذْكُر يا جاب الله كيف شحَّ النيلُ وانحسر، ففجعت الأرض جفافًا، وتشقَّقت كأفواهٍ فاغرة تنادي عطشى: «شربة ماء!»، ولمَّا يئِسَتْ، ماتت، فأطلَّ من رحمِهَا الجدب

برأسه نذيرًا يصرخ، وأحاط الفناءُ بكلِّ حيّ... إلا أرضَ البندارية المترامية المحيطة بخلوةِ الشيخِ وبرزَخِه، تتباهى خضرةً وتتفجرُ ريًّا، وتجود بِغَلَّةِ الصيف والشتاء معًا. إيه يا بنداري! ألا تنقضي العجائب والكرامات؟!، أم أن الابتلاء بالخير فتنة؟

تفجرَّتْ الأرض عيونًا مِن ماءٍ رائقٍ بارد، بِكر كأنه يلامس الأرض للمرة الأولى، فتحولت البندارية إلى واحة خضراء، وسط أرضٍ أجدبت، وأمسكت عن الخير.

فلجأ الناس أفواجًا بصغارهم وشيوخهم ودوابهم لتلك الواحة المباركة، يحيطون كقيدٍ محكَمٍ بخلوة العطية، ينتشرون بأكواخهم المعدة على عَجَل، تُظِلَّهم من سياط الشمس، ومن لفحة الهجير الملتهب.

لم يكن من شغلٍ لجاب الله سوى إطعام الطعام، وبذل كل ما يملكون، مردداً: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾.

هو الاختبار يا جاب الله؛ وكلٌّ يدَّعِي وصلاً بليلى، فهل تجود ليلى بالوصل، أم تضِنُّ.

كان يروح ويغدو خادمًا، مطعمًا، دائمًا يعاونه الأولاد والأحفاد، شعَّ وجهُ جاب الله بالنور، كأنه استعارَ وجهَ القمر، صار واحدًا من

الأبدال، أمانَ الأرض، وأُنسَ الغريب، وملاذَ الطريد، ولقمةَ الجائع، وشربة الظمآن، ورحمةَ الله على الأرض.

وحان وقت الالتزام، كيف يا جاب الله ولم يعد في الخزائن قطعةُ فِضةٍ واحدة! كيف يطالَبُ الفلاحونَ بأنصبتهم من الضرائب، وهم يتكففون الطعام والشراب؟!

يصعد المنبر الكبير، ويثني على ربه ويحمَدُه، ويصلي على نبيه ويسلم، ويعلنُ أنْ لا ضرائبَ ولا التزامَ هذا العام.

تنتفضُ دائرةُ الحكم في العاصمة، والتي وصل ثمن الرغيف فيها ألفَ قطعةٍ فضِّية، واشترى أحدُهُم حارةً كاملة بطبقٍ من دَقيق القمح، فسميت إلى الآن حارة «أبي طبق».

اعتبر الحكامُ تصرفَ جاب الله عصيانًا وتمردًا، وجُهزت التجريدة لتأديبه، وهلَّتْ طلائعُ الجند بأياديها السياطُ والسيوف على صهوات خيولهم، ليقابلَهم الفلاحونَ بالعِصِيّ والنبابيت والحجارة، ويتدرعون بأغطية الحلل والقدور، ويقيمونَ خطوطَ الدفاع بالطنابير وفلق النخل.

وعلت الصرخاتُ مدويةً في جنبات القلعة بجناح الحاكم، وأسرع حرسه من كل جانب مدجَّجِينَ بالحديد، وبدون أن ينتظر استفسارهم، أو يرد عن استفسارٍ عن سبب صراخه الذي شقَّ هدأة

ليل القلعة... «إلَيّ برئيس البريد حالًا!»، ولما جاءه مُهرولاً، أعطاهُ رسالةً مختومة لرئيس تجريدته المحاصِرة للبندارية.

وعلى تخوم البندارية المحاصَرة، ظهرت على وجوه الجند علامات الإرهاق والجوع، كانت مأساتهم لا تقل بحالٍ عن مأساة الفلاحين، فكلا الفريقين يتضوَّر جوعًا، وكلاهما ترك عيالًا يبحثون عن كسرة خبز، فكلاهما أبناءٌ لنيلٍ جفَّ، ولأرضٍ أجدبت. وعلِم الفريقان أنهما بصدد مقتلة حامية الوطيس، فمن فرق بين أولاد آدم، فجعل أحدهم مجلودًا، والآخر حاملًا للسوط.

ظهر من بعيدٍ فارسٌ يعدو بفرسه، فعلم فيه قائد التجريدة بريد القلعة، فأمرَ الجند بالانتظار، وكان قد همَّ أن يعطيهم إشارة البدء. ففض خاتم الرسالة، فوجدها أمرًا بالكف، والرجوع بالتجريدة إلى القاهرة حيث خرجت.

وجاء الشيخ جاب الله إلى نقطة المواجهة مصطحبًا عليًا وعطية -أكبر أبنائه- ووراءهم الخدم، حاملين الطعام والشراب، فُرشت الأسمِطَة، ووُضِع الطعام للجميع فنزل الجنود، وجلس الفلاحون والجند صفوفًا صفوفًا، يطعمون ويتضاحكون ويلهجون بالحمد، ولما حانت الصلاة أَمَّ الشيخ الجميع.

وبعد قليل جاء حاكم القلعةِ وموكِبُه، فقام جاب الله وولداه عليّ وعطية باستقباله، فنزل الحاكم وعانق جاب الله، وأراد أن يُقبِّلَ يد الشيخ، وسط دهشة الناس أجمعين.

جاء الحاكم يطلب العهد من الشيخ ليصير من مريديه، فقال له الشيخ جاب الله: «قد أخبرني سيدي أحمد البدوي بمجيئك، وأوصاني بك...»

فقاطعه الحاكم متعجبًا: «جاءني شيخُك، بالسيفِ والسوط، يأمرني بالكفِّ عنك».

وكان كلما أغمض الحاكم جفنًا ليلتها، لاح له فارسٌ عملاق حاملًا سيفًا بشعبتين، يلبس عمامة حمراء ضخمة، متدثرًا بسبحة ألفية غريبة الصنعة، يدعوه للمبارزة فيبارزه، حتى ليكاد أن يجهز عليه، فيصرخ الحاكم متوسلًا بالرحمة والدين، فيرفع الفارس سيفه عن عنقه، فيسأله عن اسمه فيخبره أنه السيد البدوي، ويأمره بإرجاع جنده، وهكذا تكررت الرؤيا طيلة الليل، ففرَّ الحاكم من فراشه مرسلاً بريده.

6

سادت تغاريد العصافير، فتمايلت لها أذن الأشجار، فاهتزت طربًا، ونسائم الربيع تداعبُ وجنات الأزهار، فتغار الفراشات، فتختلج ألوانُ أجنحتها المتداخلة، لتحملها أنوارُ الشمس، تظللها بسحابات حانية، تمشي الهوينى، تشهد عرسًا كونيًا، واحتفالاً بميلاد نجمٍ سيبزغ في سماوات الخير المقبل.

لم يزد وِردُك يا عيساوي عما كان، سوى غفلة قلبك النهائية عن الدنيا... ما من خاطرة تهفو لما وراء خلوتك... أصبح الكون خلوة تقطنها، وتهادى السر يسكن قلبك، ويفيض نوره فيزداد ألق الشمس، ويسبح القمر في أضوائِه.

يأتي الشيخ البنداري فجأة كما ينهمر الغيث، فيحيي أرضًا، ويزهر خضارًا، وتلين له الأحجار، وكأنهم كانوا جميعًا على موعدٍ ضُرب في سحيق الزمن؛ يأتي الأحباب... حلمي البكري، ومحمد بسيوني، وأبو جمالة، ومسرعًا يأتي السيد العيساوي.

تُفتَحُ أبواب الخلوة، فيبزغ العيساوي نجمًا، يبتدره البنداري: «أهلاً بالقطب المكتمل، اكتملتَ في الأزل، وانتظرَ الكونُ أن تنساب سطور

اللوحِ، يتحقق الغيب حدثًا بعوالم الشهادة. كنت قطبًا قبل اكتمال الأكوان، كنت قطبًا حين تتبعتك الأنوار صغيرًا، كنت قطبًا حين تواجدت عشقًا تُنقِّب عن شيخٍ دليل. وأنت شيخ».

واكتمل الأحبابُ جميعًا بخروج العيساوي الأحمدي البنداري. يبشرهم البنداري كما اجتمعتم على المحبة دنيا، ستجتمعون برزخًا ومعادًا.

يتوقُ العيساوي للقرآن، فيصبحُ الجميع على أغرب المشاهد... فالعيساوي يجلس مع الصبية في كُتَّابِ أبي جمالة، يكتب معهم على اللوح، ويرددُ مع أصواتهم الآيات، وأبو جمالة يرجوه أن يجلس جانبه على أريكته، أو يفترش أبو جمالة معه الأرض، فيأبى العيساوي إلا أن يبقى أبو جمالة على أريكته، ويبقى هو مفترشًا الأرض بين صبيان الكتاب.

يودعهم الشيخ البنداري مطمئنًا باسمًا، يغادر لطنطا حيث الروضة الأحمدية، يقف مناجيًا سيده بأسرارٍ ويوصي أن يكلأ السيد أبناءه إلى أن ترث السماواتُ الأرضَ، وتطأ الثرياتُ الثرى.

وَبالعَابِدِ المحْمُودِ سَيْرًا وَسِيرَةً أَقِمْنَا عَلَى التَّقْوَى وَقَدِّسْ نُفُوسَنَا

فَيَارَبِّ أَمْطِرْهُ سَحَائِبَ رَحْمَةٍ تُبَلِّغْهُ أَعْلَى الفَرَادِيسِ وَالمُنَى

ولما بلغ سيدي محمود البنداري حدود دنايوس البندارية بالشرقية، استقبله أولادُ أخيه صالح وصلاح... كانا صورتين مكررتين من الشيخ، إلا أن صالحًا كان ربعةً يميل للقصر مع بعض الامتلاء، وكان يركب حِصَانًا بلا سرجٍ ولا لِجام، وكان الحصان في بعض الأحيان ينطلق مسرعًا وصالح لا يميل ولا يضطرب، ثابتًا كأكمل الفرسان دربة وتمكنًا مع كونه كان كثير الغياب، نادر الكلام، كأنه قد رحل إلى غير أرضنا، كأنه لحق بالملأ مسبحًا، تراه متمتمًا هامسًا دومًا بأذكاره، وصلاته، وتسبيحه.

وصلاح شقيق صالح كان يميل للطول وبه بعض النحافة، يركب حِصانا مطهمًا، ظاهرَ السيادة، مكتملَ الحِنكة في إدارة الأملاك، ومسايسة الحكام والفلاحين معًا، ليجمع كلا الفريقين على حبه واحترامه، يذكرك بعزيز الكبير حينما ينشغل بالحسابات وتدبير الوارد والمنصرف، ولا يقل صلاح -مع ذلك- عن صالح ديانة وورعًا، إلا أنها قد أصبحت سنةً في آل عطية البنداري، منذ علي وعزيز، أحدهما للعشق ومكابدة الأحوال والارتقاء في المقامات وحوزة السر، والآخر للحَذْق، وسياسة الدنيا، وإدارة المال، وربما للوزارة وحكم العباد وقيادة البلاد. فسبحان من سخر صالحَ أولئك لهؤلاء، وترى كلا الفريقين في مسارات حياتهم، وخواتيم أيامهم أولياءً سادوا الدنيا وكانوا سندًا للدين، ومصابيح محبةٍ يستضيء بهم العباد.

ولم يكن من عادة صالح وصلاح أن يكون كلاهما في استقبال الشيخ محمود البنداري، ولكن أحدهما كان يتناوب مع أخيه في استقبال عمه، فقد مات أبوهما شابا وتركهما لأخيه الشيخ فكان الأخ نِعْم الأب ونِعْم المُربِي. لا لم يكن أبًا لابني أخيه، ولم يبالغ في محبته لهما، وحدبه عليهما، لأنه لم يرزق بعد بالولد، ولا لكونه قد بلغَ السبعين من غير ذرية، ولكن لكونه كان رحمة عامة لخلق الله أجمعين، ومحبة للقاصي والداني، كان عطفًا خالصًا، وشفقةً تزداد بمرور الأيام والسنين.

ولما رآهما الشيخُ علِم أن في قدومِهما معًا أمرًا، فأومأ الشيخ مُستفسرًا ليخبره صالح، وكأنه قد آب لتوّه من رحلةٍ طويلة، وسرعان ما سوف يستأنف الرحيل، وأن زوجته قد بُشِّرَت بحمل، وسبق أن يئست كما ييأس النساء، فسجد الشيخ شكرًا، وسجدَ لسجودِه صالح وصلاح، وغاب صالح يهللِّ بصوتٍ طَرِب، وقدَّم صلاح ضاحكًا لعمه ركوبته، فلما اقترب الركب من الديار، نزل الشيخ... وبعد أن اطمأنَّ على زوجته، دخل خلوته وهام في سماوات الحمد ومقامات الشكر.

وبعد انتهاء شهور الحمل جاء صالح مُبشِّرًا عمه الشيخ بابنٍ وليدٍ، كفلقة القمر، يصيح صياحَ الوليد وكأنه يُسبِّح، يصل أجيالاً بأجيال، أعمارًا بإعمار، ليهتف صالح: «مُصلح... مصلح... هو مصلح يا عمي»، فيبتسم الأب الشيخ: «فليكن مُصلحًا يا صالح... فليكن مصلحًا» ليدور صالح حول نفسه فرحًا بفرحة عمه الطيب مكبرًا ومسبحًا.

✠

وعاد النيل يجري حاملاً الحياة بين موجاته الفتية الهادرة، تحتضنه أرضٌ طالما اشتاقت لوطء خطوَته مانحة الخصب والرِي، لتورق الأشجار خَضارًا صبيًا، وينبت الخير وليدًا يافعًا، وتُصالحَ الأيامُ الأيامَ، ويصفو الزمن بعد طول عبسٍ وتجهم.

يعود الفلاحون لديارهم، يحتضنونها بأنفاسهم، ويربتون على شقوق جدرانها بترابٍ اختلط بماءٍ كعطر الصباح.

ولكن عام الجدب أثر سلبًا على صحة الشيخ الجليل جاب الله، وبرحيل العام رحلَتْ عافيتُه، وكأنما أنفقها جميعًا مع ذهبه وفضته التي أنفقها في سبيل من اجتاحهم الجوع فلجأوا إليه.

يتذكر جاب الله... وكم تغزوه الذكريات بلا ملل، مُلحَّةً بصفوها وكدرها، بأفراحها وأحزانها الكثيرة، ربما كانت هذه الخطوات الخافتة التي تنوء بها قدماه، مستندة على عصا أبيه السطوحي عطية البنداري هي خطواته الأخيرة... يبدأ بزيارة المقابر الجاثمة بالصحراء البعيدة، يرقد فيها بسلامٍ -ولأول مرة- الوليّ بجانب الشقيّ، واللص بجانب الشرطي، والشريف بجانب الحقير، والفقير بجانب الغني... تعلوهم السكينة ويجللهم السلام، لا تنابز ولا ملاحاة ولا مطاردة، كلهم تحت رحمة ربهم التي وسعت كل شيء. يدعو ويقرأ فواتح كثيرة تشرئب الأرواح لنيل بركاتها.

كم أثرت فيك الأيام يا شيخ، لترجع لا تبارح خلوتك، ويتناوب ولاداك على وعطية الخدمة والسهر.

عليّ لمكابدة العشق، وعطية لمسايرة الحياة، هي القسمة التي ما شذت يومًا، والسُّنة التي ما انقطعت في ذرية عطية الكبير.

يخطو جاب الله خطواته الأولى نحو حياة أخرى بكيفية أخرى وقوانين جديدة.

حيًا... يستقبله الأعزاء: أبوه عطية، وأخواه عليّ وعزيز يتقدمهم السيد ذي الراية الحمراء، الأحمدي المسمى، العيساوي القدم... كلهم في ميعة الشباب ورونق الفتوة، لترحل إلى لانهاية تجاعيد الأيام وشيب السنين، يودعه الأبناء والأحفاد والمريدون...

هنا كان يحيا يومًا شيخٌ جليل يُدعى جاب الله البنداري، ولا تكف الصباحات عن الرحيل ملاحقة المساءات الحزينة، والنهار الباسم يعقبه ليل كئيب، لا تمل السنون، ولا تتوقف الأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

7

منذ زمن ليس بالبعيد، لم يكد عم إبراهيم عبده يفرغ من عمله في الأراضي الواسعة لوليّ الله العيساوي، مثل فراغه الآن، لا لأن الزمن ليس بموسم تخضير أو ري أو حصاد، ولكن لأن الأرض التي كانت يومًا واسعة قد انحصرت، فلم يعد منها غير قراريط لا تعد، حتى على أصابع اليد الواحدة.

وكان عم إبراهيم أسود اللون، ضخم البنيان، كبير الرأس، طويل الذراعين مفتولهما، وسيع الكفين، ينظر إليك من عينيه الضئيلتين باندهاشٍ مستمر، حتى ولو قابلك في اليوم الواحد مرات عدة، يسلم عليك، فيهز يديك بشدة، على سبيل الترحيب، مرددًا اسمك واسم عائلتك، مستفسرًا عن حال أبيك، وفي بعض الأحيان عن صحة أمك، يسأل عن أحوالك وأحوال أولادك، يحبه الجميع ويحبون هيئته الغريبة، ويباسطونه، ويحلو للجميع مداعبته، ومضاحكته.

ومنذ أخذِه عَهد البندارية -من يد شيخه العيساوي- وهو في حال من البسط والأنس، خاصة وقد استقر السيد العيساوي في البلدة بعد

حصوله على العالمية الأزهرية، ولم يكن من شيءٍ أحبَّ إليه من خدمته ومحادثته وسماعه لمراجعته دروسه أو متابعة ما يلقيه في الجامع الكبير من أحاديث نبوية.

وكانت زوجة العيساوي قد انتقلت من زمن ليس بالقصير، ولم يعد له من يخدمه في الدار أو يلبي احتياجاتِه البسيطة، خاصة وأن ولده السيد كثير الترحال بين البلاد يُعلم ويعظ وينشرُ حديث رسول الله، فكان يراوحُ في قراءته بين صحيحي مسلم والبخاري، ثم ينطلق إلى القاهرة لمقابلة مشايخه وأقرانه بالأزهر، خاصة صديقه العزيز صالح الجعفري فكلاهما لا يطيق بعدًا عن الآخر.

وفي ذات ليلة حلَبَ عم إبراهيم عبده البقرة الوحيدة لدى الشيخ العيساوي ودخل عليه ببعض لبنها، وبعدما فرغ الشيخ من شرابه، مازحه قائلاً: «يلزمك زوجة في الدار يا شيخ، فخدمة رجل مثلي لمثلك تدخل الوحشة على قلبك»، فابتسم الشيخ متسائلاً: «وهل لديك عروس يا فالح؟»، فقال: «وهل لي غيرها أختي، أزوجها لك يا شيخ»؛ وكانت أخته أشبه الناس به، لا تقل عنه سوادًا، وإن كانت بالطبع أضعف جسدًا، وأقل طولاً وعرضًا.

وكان السيد الجليل الشيخ العيساوي يحب عم إبراهيم عبده ويوقر إخلاصه في خدمته، خاصةً وكان أول من أخذ العهد البنداري على يديه بعد أن أذِن له البنداري في ذلك، فكان يعده أخًا للسيد، كان

العيساوي كارهًا للعصبية القبلية والعائلية، كان يود لو قرَّب بين صغار العائلات وعائلته الكبيرة الثرية، عتيدة الأصل والمنشأ، فاستحسن العيساوي ذلك ورأى وجاهة اقتراحه، خاصة وأنه يحقق أكثر من هدف في وقت واحد.

فتزوج العيساوي من أخت عم إبراهيم عبده، وبعد أيام جاء عم إبراهيم لزيارة أخته، فقال لها مازحاً: «أريد من طعام عرسكما يا أختي» فأسرعت أخته بإحضار الطعام، الذي لم يتعد كسرة من الخبز الجاف، وبعض الملح، ولما أبدى عم إبراهيم استغرابه، قالت: «والله ما أكل الشيخ ولا أكلتُ غير ذلك منذ ثلاثة أيام»

✠

وكان الشيخ عبد الحليم طولان، والشيخ علي زهران صنوان وإن فرقت بينهما البلدان. أولهما كان من عائلة الشيخ العيساوي، وثانيهما كان من أكابر تجار الأخشاب بمنوف، وكلاهما كان من أحباب الشيخ ومريديه الأكابر؛ وكان الشيخ عبد الحليم من حملة العلم الشرعي، لم يكن يترك من واردة ولا شاردة إلا وأخضعها لأحكام الشرع، فكانوا يحتكمون إليه في المواريث والمعاملات وحساب الزكاة وغيرها، وكان الشيخ علي زهران رقيق القلب، جياش المشاعر، يبذل من أمواله ومكانته في خدمة إخوانه، وبالرغم من أن الكرم آفة التجارة، إلا أن

تجارته كانت في اتساع وازدهار دائمين، وكلما زاد بذله، زادت عائداته، واتسعت تجارته.

اجتمع الأقران الثلاثة بالرغم من اختلاف المكانة والحسب، إلا أن المحبة والعهد، قد أزال ما قد يفرقهم من مكانة وحسب وغنى، وكان ثالث الاثنين عم إبراهيم عبده، كلٌ يحكي عن حاله، إلا أن عم إبراهيم عبده باغتهما فحكى لهما عن شخصٍ بهيّ الطلعة، رجلَ الشعر وافره على غير عادة الفلاحين، كحيل العينين واسعهما، ربعةً، بعيد ما بين المنكبين، لا هو بالقصير البين، وإن كان يميل للطول، ويتحدث كالأفندية (يقصد أنه يتحدث بالفصحى)، وعلى الرغم من ذلك فكان عم إبراهيم عبده يفهم ويعي كل كلمة يقولها. فسأله عم عبدالحليم طولان إن كان يراه في اليقظة أم في المنام، فأجابه أنه يراه في اليقظة على رأس حقل الشيخ العيساوي الذي يعمل به، فأخذه الشيخ عبدالحليم و الشيخ علي زهران كلاهما قد أمسك بيد، وأسرعا به إلى خلوة الشيخ يخبرانه عن قصة عم إبراهيم عبده، فقام عم العيساوي يعانقه، ويهنئه بمقدم رسول الله، فبادر عم إبراهيم وقال يخبرني أن الأرض لن تأكل جسدي بعد موتي يا شيخ، فقال له العيساوي: «صدق... صدق»، ثم قال العيساوي: «قد سبقكما إبراهيم، لا بعلمٍ ولا بمال، ولكن بحلال المأكل وبطيبة القلب، ومحبة تزن جبل المقطم لكل خلق الله... هنيئًا لك يا إبراهيم».

ومن ساعتها علما أن ما وقر في القلب يفوق ما رَكَزَ في العقل، أو ما تراكم في الجيب.

وكأنها كانت ترنيمةً سحرية قد أُلْقِيَت على قلب كل من سيدي الشيخ عبدالحليم طولان والشيخ على زهران، أما العم إبراهيم عبده فقد أقام له خُصَّاً من عيدان الذرة المجدولة بحبال من التيل، مسقوفة بأعواد القطن اليابسة على رأس حقل سيدي العيساوي، في المكان الذي التقى فيه بالمحبة والسلام، لم يعد عم إبراهيم من أهل الدنيا، تمرُّ عليه الأيام بدون لقمة أو شربة، وكأن الجنة قد تعجلت أوانها قبل الأوان بأزمان طويلة، يهيم بتسبيحاته، يرنو دائمًا للسماء فلم تعد الأرض له بمستقر، يأتيه المكروب بكربه، وذو الحاجة بحاجته، والمريض بعلته، وما هي إلا ثوان يرفع فيها العم إبراهيم عبده يده للسماء، فيخرج الجميع من كوخه راضيًا مرضيًا، وكأن يد الكرب أو الحاجة أو المرض لم تمسهم ساعة.

وتعلق قلب الشيخ عبد الحليم بالعرش من ساعتها، وكلما مر عليه نفر من الأنس أو الجن حتى صافحته الطمأنينة، وابتدره السلام، فزاد إيمانًا على إيمانه، ويقينًا على يقينه. ورافق الشيخ السيد عبد الحليم السيد العيساوي، هذا يُحدِّثُ الناس بحديث النبي، وهذا يُفقِّه

الناس، حتى فقه الفلاحون بـ «شمياطس»، وعجِب أهل القرى من علومهم.

وذات يوم رافق بعض الأزاهرة المعممين من بلدة أخرى فسمعهم يتجادلون في صحة رواية حديث من عدمها، فبادرهم عم محمود قائلاً: «كيف تتمارون في حديث رواه الامام مسلم في صحيحة؟!» فتعجب الأزاهرة فكيف لعم محمود الصعيدي الفلاح البسيط الذي لم يتلق من العلم بمعاهده ولو قدرًا يسيرًا، وعلى ندرة الكتب والصحاح وقتها، ولكن زال العجب حينما علموا ملازمته مجالس الحديث والفقه للشيخين السيد وعبد الحليم.

أصبحت بلدة العيساوي البنداري خليل منارة للعلم والولاية، ولما علم الشيخ السيد بذلك ابتهج وقال: «إن هذا والله من فضل الله، ولو أملك فدانًا من الأرض لبذلته إطعامًا لأهل الله»

أما الشيخ علي زهران فقد رقَّ قلبه، واستجابت دموعه لرقة قلبه وانفعلت، ودَّ لو يُصفِّي تجارته ويمكث بجانب أحبابه يخدمهم ويقتبس من أنوار قريتهم الصالحة، ولما استأذن الشيخ قال له برقة: «ولايتك في أمانتك وعطائك، انطلق يا علي لتجارتك ولا يفتر قلبك عن ذكر الله».

فسمع عم علي زهران وأطاع، وحينما أرَّقه الشوق قام في ظلمة الليل يكتب خطابًا لشيخه، يبثه الأشواق والمحبة، وظل ممسكًا بالقلم، كيف يبدأ الخطاب، وكيف يبثه الأشواق؛ وبعد ساعاتٍ طوال، وضع الورقة بيضاء كما هي في مظروفها، ولما وصل الخطاب لشيخه العيساوي، ضحك مرددًا قول مولانا النفري: «إذا اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة، ما حسبتها وما حسبها النفري تضيق لهذا الحد، لله درك يا ولي الله يا علي يا زهران»

وهكذا كان عم إبراهيم عبده ذو الوجه الأسود، ناصع بياض القلب، ما أمتلك يومًا ذهبًا ولا فضة، ولا ذرات من طين عتبة الولاية لأخويه الشيخ عبد الحليم وللشيخ علي زهران.

❋

وحضر الشيخ البنداري لتفقد أولاده، برفقة أولاد أخيه صلاح وصالح وابنه مصلح وقد بلغ العاشرة من عمره، وقد بلغ الشيخ من النحافة مبلغًا شديدًا، حتى أنه كان يعتمد في قوته على الضئيل غير المذكور من الطعام. ولولا مجاراة الأسباب ما ذاق طعامًا أو مس شرابًا، وقد بلغ من النورانية منزلةً ملائكية، يذكرك في سمته وإشاراته وكلمته بأجيال سبقت نطالع سيرهم بين صفحات الكتب. ليقابلهم الشيخ العيساوي بين أبنائه من جيلين للبندارية.

وتولى سيدي الشيخ أبو جمالة تربية جيلٍ مزهرٍ من حفظة القرآن الكريم، وهؤلاء قد سادوا عالم القراءة علمًا وأداء وحفظًا، كلهم كانوا في استقباله.

فرح سيدي محمود البنداري بثمار بذرته التي ألقاها بطيات تلك الأرض الطيبة.

وبينما هم يسيرون في موكبهم، قابلهم موكب السادة الرفاعية، يمارسون طقساً يسمونه «الدوسة»، وهي أن يستلقي الرفاعية على ظهورهم ليمر شيخهم عليهم.

إلا أن صالحاً قد أصابته حال غريبة دفعته لأن يسبق شيخهم ويمر عليهم راكباً حصانه، كرر فعل المرور أكثر من مرة، على عادته في امتطاء الخيول بلا سرج أو لجام، وبدون أن يصاب أحدٌ ممن مرَّ عليهم بحصانه من أذى، ليُكَبِّرَ الرفاعية، وينتبهوا لوجود الشيخ محمود البنداري، فيرحب به شيخ الرفاعية ويحتفي بهم أشد احتفاء ممكن.

ويعاتب الشيخ محمود البنداري صالحاً، ويردد أكثر من مرة «أفشيت السر يا ولدي، أفشيت السر يا ولدي..» إلا أن صالحًا قد غاب ثانية في عالمه.

اجتمع الشيخ البنداري مع ولده الشيخ العيساوي، فشعر الأخير بشيء غريب مختلف في هيئته، فقد صغرت عمامته عما كانت. فأجهش

العيساوي في البكاء، فبادره البنداري قائلاً: «لن نفترق، فبعهدنا لن يفارق أحدنا الآخر حتى ولو فرقتنا العوالم».

لم يكن صالح في حالٍ تسمح بمشيخة الطريقة، وكذلك صلاح؛ أما مصلح فمازال صغيرًا، فانتقلت المشيخة من أبناء الصلب لأبناء العهد، وأصبح وليّ الله العيساوي شيخ الطريقة البندارية بأمر شيخه محمود البنداري وهو بعدُ على عين حياته.

ليظل التساؤل من كان يطلب من؟ ومن كان يبحث عن الآخر؟!

وها هو الشيخ محمود البنداري يخطو خطواته الأولى نحو خلوته حيث كانت البدايات وما استقرت عليه دائمًا مآلات الأمور والأحوال.

✠

وبلغ سيدي محمود أبو جمالة الولاية من سبيل الله ونوره القرآن الكريم، فمنذ أعطاه شيخه محمود البنداري ورده الذي لم يجاوز تلاوة القرآن إلا وفتحت له من أبواب الخير، وكما من الله عليه بتعلم القرآن، كان حتما أن يؤدي زكاته وهي تعليم غيره.

وكان سيدي محمود أبو جمالة خوَّاصًا، يستيقظ مبكرًا يصلي الفجر، ثم ولده عتمان يقوم بجمع خوص النخيل، ويصنفه لخوصٍ دقيق وآخر خشِن، الأول لمنتجات الخوص الدقيقة كالمفارش، وحصير الصلاة، والآخر الخشن للسلال الكبيرة وما تحتاجه البيوت من سلال

متفاوتة الأحجام لحفظ الغلال والخبز، ثم يقوم بِغَلي الخوص في برميلٍ ضخم، وحينما ينتهي أبو جمالة من صلاته وترديد أوراده، يكون عتمان قد انتهى من إعداد ما سوف يستخدمونه من الخوص الطري المُعد للجدْل ومن ثم صناعة ما تم الاتفاق على تصنيعه.

وكان جلال الابن الثاني لأبي جمالة قد حذق الخياطة في القاهرة، وكان من أوائل من قام بذلك في البلدة، بعدما كان أهل البلدة يعتمدون على محلات الحياكة بالمدن المحيطة كالشهداء ومنوف.

وحينما يفرغ الأب وولداه من أعمالهم، كانوا يشرعون في قراءة القرآن، ومراجعة حفظهم على يد أبيهم، ثم يتوافد على الشيخ الصبيان ومن أراد حفظ ومراجعة القرآن.

حتى أتم الشيخ عتمان حفظ القرآن مع أخيه جلال، وكان لجلال وعتمان أصوات شجية جميلة، بارعة في الانشاد ومدح النبي وآل بيته وكم أحيوا الليالي والمناسبات بشهر ميلاد النبي وموالد الأولياء والصالحين.

وكان الشيخ عتمان يقوم بخطبة الجمعة بجامع البلدة الشرقي.

كانت عائلة أبي جمالة نفحة ربانية تهب الخير كله، تنفع الناس، وتبذل كل ما يحتاجه الناس، وكان لسيدي أبي جمالة خدمة قوامها الخبز

والسلاطة فقط، ما ذاقها مريضٌ إلا وعافاه الله، ولا مكروبٌ إلا وفرج الله عنه.

كان تلامذة البنداري كالمصابيح المنيرة حيث حلوا، وأي كانت أعمالهم ومهامهم. كانوا من بركة شيخهم، وثمرات إخلاصه، وإخلاص من أخذ عنهم، وكانوا كرامة شيخهم الأكبر السيد البدوي.

✠

تضاعفت المسئولية على سيدي السيد خاصة وقد لازم ولي الله العيساوي خلوته ولم يعد يخرج منها إلا نادرًا جدا. فكان سيدي السيد قائماً بكل مهام شيخ البندارية بالإضافة لمهام تعليم الناس الخير، فكان سيدي عتمان أبو جمالة، وسيدي عبد الحليم بمثابة فريق المعاونة الخاص بسيدي السيد العيساوي.

ومن طول ملازمة سيدي عتمان لسيدي السيد وسيدي عبد الحليم طولان تفقه فقها متينا، وتمكن من الخطابة، خاصة وقد قوم القرآن لسانه، فتولى خطبة الجمعة بجانب قيامه بفلاحة أرضهم ضئيلة المساحة.

✠

8

طالت مسيرة العشق، وامتدت رحلة السنين الطوال، وكأن عُمْرًا فوق عمرك أيامه المحبة، وساعاته الصلاة على شمس الطريق، وكفيل المحبين، فهل لك من فسحة عيش، أو أمل بقاء، وكنتَ البكري له، وهو قد رحل لعالمٍ جديد، لن تراه في عالمكَ ثانية، إلا رؤيا في منامٍ مؤرق، فتسعد الروح بلقائه، وتظن أنه قد عاد، وحينما تصحو عيناك، لا تلمح سوى الفناء، فيرتد بصرك لعالمك وهو حسير.

لم يعد لسيدي حلمي البكري، بعد شيخه البنداري، غير اجترار الذكرى، وتفاصيل هذه الليلة... ليلة اللقاء لا تبارحه، يبحث عن أثره في عيون إخوانه، ويتنسم ضوع عطره في أنفاسهم يطوف على إخوانه منزلًا منزلًا: العيساوي، السيد، البسيوني، وأبي جمالة، كلهم في لوعته وشوقه، كلهم من مدد عهد البنداري يتقوى على لوعة فقده، ولكنك لم تعد كما كنت،

- يا سيدي هبني لقَاء واحداً..
- ها قد أتيتك يا بكري..

- ولكنك يا سيدي تسارع في الرحيل، ولا يبق لي غير الشوق وتباريحه، وما عدت أقوى على ألم الفراق.
- وهل افترقنا يا بكري؟ كنتُ معك في كل صلاة على النبي أردد بلسانك، وأقيم بقلبك، ألم تشعر باختلاط أنفاسي بأنفاسك، واختلاج نبضات قلبي بقلبك.. ألم تشعر...؟
- بلى شعرت، وما زادني ذلك إلا لوعة. ولكن يا سيدي لا تتركني، فلا عيش لي بعدك...

يمد البنداري يده، فيتلقفها البكري مسرعاً بعينِ سرعةِ تلقِفِهِ العهدَ ليلتها، وينهض شَابًّا فَتيًا لا أثر لشيبٍ ولا وهن، وتتبدل عبراته فَرحًا... ويهل موكب البندارية... سيدي عطية الكبير رديف سيدي أحمد البدوي على حصانٍ أبيض مطهم، لا تلمس قوائمه الأرض، وسيدي جاب الله، وسيدي عليّ وسيدي عطية الأزهري والحسن السيد البنداري... وتقام الحضرة الأحمدية البندارية... ويلتحق البكري بديوان القرب الليلة.

❁

يفزع سيدي العيساوي من خلوته، «وهل يُقَام ظَهَر لي بعدك يا بكري، ذهب طيب الدنيا بذهابك يا رفيق الطريق الطويل»، تستيقظ البلدة على الخبر، ويهل صالح وصلاح ومصلح ويسرع عليّ زهران والأحباب كلهم على غير موعد، أو سابق علم بالخبر...

وكأن وريد قلب العيساوي قد انفصم، لتسيل دموعه مجرى دمه وريدًا يسلم وريد، ويعاتب القلبُ القلبَ...

- ألم نكن سَوِيًّا في كل وقت؟ فلم سبقتني رَاحِلًا؟
- ألا تذكر ليلة العهد؟ لم أعاتبْك حينما سبقتني بمعرفته، وحينما اختلط قلبك بمحبته قبلي، أحببتُه لحبك، وأحبَّني بحبك...
- ولكنك قد كنت البكري وكنت أنا الثاني، سبقتَني للحياة بثوانٍ، كل ثانية بأعمار طويلة تحت سماء العشق لم رحلت وتركت روحي تتلمس الطريق وحيدة موحشة بالغربة بعدك؟
- يدك يا عيساوي لا تحزن، فلا حزن بعد اليوم ...
- ولكن لن نفترق ثانية؟
- لا فراق بعد اليوم...

ولاحت رايات موكب الأفراح ثانيةً، وكان مجلس العيساوي عن يمين البكري بمجلس الديوان الذي ترأسته المشيرة، وكذلك تجاور البرزخان... ولقب العيساوي في الغيهب بأبي المعارف.

كان الفقد شديدًا على القرية الطيبة، لم يفصل رحيل الحبيبين سوى أشهر عدة، وأرَّخَت لذلك القرية فسمَّت العامَ عام الحزن.

واجتمع بندارية المشرق والمغرب، واختاروا للطريقة شيخها. وكان سيدي محمود أبو جمالة من توحدت كلمة البندارية وقبلهم الديوان

على اسمه... لتضرب البندارية المثل الأعلى في السماحة ونبذ العصبية، وتنتقل المشيخة للأصلح لا للأقرب دَمًا، فلا فرق بين بندايّ وآخر... كلهم إخوةُ عهد، لتغلِبَ أخوَّةُ العهد أخوة الدم.

ويكون ذلك الانتقال الثالث للمشيخة من بيت البندارية لبيت العيساوية وتستقر لحينٍ ببيت أبي جمالة القرآن.

لتنساب السطور عِطرًا بمنظومة البندارية تتغنى بسيرة الوليين العيساوي وأبي جمالة..

وَبِالعِيسَوِي امْنَحْنَا لَطَائِفَ حُكْمِهِ هُوَ البَحْرُ فِي التَّحْقِيقِ وَالشَّرْعِ
وَلَمْ يَخْشَ دُونَ اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ لَقَدْ أُعْطِيَ العِلْمَ اللَّدُنِّي وَأَعْلَنَا
كَذَا بِأَبِي جَمَالَةٍ رَقِيَ الْعُلَا بِما قَرَأَ الْقُرْآنَ سِراً وَمُعْلَنَا
فَيَا ذَا العُلَا نَدْعُوكَ أَكْرِمْ نُزُولَهُ وَبَلِّغْهُ مَا يَرْجُوهُ مِنْكَ وَعُمَّنَا

9

منذ الصباح الباكر انهمك العم سليمان الصعيدي، في تسوية الأرض، ثم تقسيمها إلى خطوط مستقيمة طولية، ثم يشكلها على صورة أحواض مؤطرة بخطوط مستعرضة، فدورُ الريّ قد أزف بعد طول انتظار، فتراه في عجلة من أمره، ومع ذلك فاستقامة الخطوط الطولية وما يتقاطع معها على حدود الأحواض من خطوط عرضية غاية في الاستقامة والابداع، ومن الحين للآخر يهتف «الله...الله» مع ابتسامة رضا منيرة، حانية تظهر على وجهه الأسمر النحيل، وكان جسده في استقامة خطوط أحواضه الرشيقة، نحيلا بقوة، مفتول العضلات، ينم ارتفاع جبهته على عزم وتصميم وإرادة لا تلين، مستقيم الأنف، واسع العينين.

وكان العم سليمان الصعيدي قد سهر طوال الليل على ضوء ثلاثة مصابيح وقودها الكيروسين الأبيض في ضرب قوالب الطوب اللبن، تمهيدًا لبناء مندرة الضيافة الجديدة لآل العيساوي، كان العم سليمان شابًا صغيرًا حينما عاصر ولي الله أبي المعارف العيساوي، وكان الوحيد أو من القليل في جيله الذي نال بركة العهد من قبضة

أبي المعارف في حياته، فأبوه الشيخ محمد الصعيدي كان لا ينقطع عن حضرات البندارية في ساحة العيساوي القديمة وكان دائمًا ما يصطحب ابنه الصغير معه، فنشأ سليمان على محبة الطريق، واستقام عوده على أوراد البندارية.

وكما نشأ سليمان في ساحة العيساوية البندارية حرص على اصطحاب ولده أحمد الذي لم يتعد السبع سنوات معه، حيث تقام الحضرات البندارية على رأسها شيخهم الجليل أبي جمالة عن يمينه خليفته سيدي السيد العيساوي، وكلما رأى الشيخ السيد أحمد بشر أبيه سليمان ببشرى ولايته، فيقول: «ولدك يا سليمان وليٌّ صغير»، وأحمد الصعيدي كان يحفظ من صغره كل أوراد البندارية، خاصة المنظومة البندارية ومنظومة الاستغفار، وكثير من قصار السور حفظها على يد الشيخ أبي جمالة، وكان يحلو للشيخ سيد الاستماع للطفل الصغير أحمد وهو ينشد منظومة الاستغفار في الليالي التي كان يجالس فيها سليمان في داره.

كان السيد العيساوي يجد راحة وطمأنينة جارفة في مندرة سليمان الصعيدي، فكان إن خرج من نطاق بيته ومسجده وخلوته، لا يجد غير مندرة الصعايدة مرفأ سلام وطمأنينة ومحبة، وحينما كان يسأله المقربون عن سر ذلك، ولم لا يجالس الكثير من الأثرياء الذين يتمنون مجلسه، ويتمنون أن يخطو أعتاب قصورهم، وهو العالم الجليل،

والشيخ المبارك، يقول مداعبًا بنبرة جادة: «والله إن مِشَّ الصعيدي، ألذُّ عندي من شهي لحمهم وثريدهم»

لم يخرج العم سليمان عن انهماكه في العمل، وكان الطفل أحمد يساعده ببذر بذور الذرة، على أطراف الخطوط التي يخطها سليمان، بمساعدة محراثه الذي يجره حمارٌ أبيض وديع الصورة، عالي الصهوة، ليتوقف العم سليمان فجأة عن العمل ويهتف بصوت يسمعه أحمد...

- حاضر... حاضر... أحمد هيجيلك حالًا بالركوبة يا سيدي..

ليعجب الطفل أحمد من هذا الحوار الغريب بين أبيه وهذا الشخص الغير مرئي، وكان الطفل على حداثةِ سنّه متقد الذكاء، حاد الملاحظة، فعاجل أبيه بالسؤال عمن يحدثه...

فابتسم الأب وأخبره بأن الذي يحدثه هو سيده السيد العيساوي، فتعجب أحمد لذلك كيف يحدث أبوه الشيخ عن بعد وهو لم يره، فأخبره سليمان بأنه يومًا سيعلم كيف تَطوِي المحبة المسافات والأزمان، ثم جهز سليمان الحمار وأمر ابنه الطفل أحمد بأن يذهب بالحمار لشيخه السيد فهو ينتظر عند الجامع الشرقي..

فركب الطفل الحمارَ وأسرع نحو الجامع، فإذا بالشيخ السيد يجلس على مصطبته منتظراً، فلما اقترب الطفل منه، قال له: «لا تسأل يا

أحمد ثانية فتضيع الوقت، ويضيع العمر في السؤال تلو الآخر، امتثل للأمر توفر من عمرك الكثير والكثير ...»

وبالرغم من ضخامة النصيحة، وصعوبة فهمها على من هو في سنه، إلا أنها وعى بعضها، واختزنها في ذاكرته، يرجع إليها في المقبل من عمره، وكلما رجع إليها، تكشفت له الحقائق على ضوئها...

✠

وحينما اكتمل تشكيل العدد المبتغى من الطوب اللَّبِن، المتلألئ ذهبًا، كلما انعكس وميض ألسنة مصابيح الكيروسين الحمراء على ما رصَّع جنباته من نثرات تبن، كشذرات ذهب منسي، ومن بركة طين مختمر، يفوح منه عطر الخلق الأول المتوج بسجود النور بين يديه، كان الطفل أحمد الصعيدي يغترف من طينه مِلاطًا على صفحات خشبية معدة، يناولها لأبيه سيدي سليمان المنهمك بكل ذرة من عزمه في رص الطوبة بجوار أختها، يوفق بينهما في تآلف لصيق، ثم يضع عليها من الطين المختلط بالتبن، فإذا البناء يرتفع متماسكًا رويدًا رويدًا، يشاهدهم السيد العيساوي وقد انساب حال البسط ففاض على كل من شاهد، ليلة تلو الليلة، يستقيم البناء عاليًا، تجتمع بين جنباته أفئدة تخفق بالحب والعشق، هي المندرة الأحمدية العيساوية الجديدة.

يجتمع الأحباب على رأسهم الشيخ ويبدأ سيدي السيد بقراءة صحيح مسلم، قبل الحضرة البندارية، فكان من مآثره حصوله على إجازة

قراءة لصحيح مسلم بسند صحيح متصل للإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، الملقب بأبي الحسين، للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان منهج الشيخ السيد العيساوي مقتصراً على قراءة متن الحديث دون إطناب في الشرح إلا تفسيرًا مقتضبًا لما يصعب من الألفاظ، فكان يغار على لفظ رسول الله من أن يزاحمه من غير لفظه النبوي، حتى لو كان لفظ السيد العيساوي نفسه. والغريب أن كل من كان يستمع، مهما بلغت درجة تعليمه أو عدمت، يفهم مغزى الحديث بل ويحفظه، فكانت بركة لفظ النبي تفيض على الجالسين معرفة وعلمًا ونورًا.

ثم يشير الشيخ أبو جمالة لبدأ الحضرة آمرًا الجميع بقراءة الفاتحة، ثم ذكر السادة البندارية سيدي عطية، فسيدي جاب الله حتى سيدي العيساوي، ثم الوقوف على رأس الطريقة سيدي أحمد البدوي بأشعار معظمها من المنظومة البندارية، يرتفع بها صوت رفيع جميل يمتلأ شجنًا وحزنًا وحنينًا يترنم به الطفل أحمد الصعيدي الذي أفرد له دور المنشد في الحضرة، ثم تلاوة أحاديث فضل التهليل، ثم ترتفع الحناجر بتدرج صوتي منتظم على إيقاع بديع بصفقة يد مدربة، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم القيام من موضع الجلوس في حلقة واسعة، تتشابك بها يد الأحباب، في وسطها الشيخ ينظم الدائرة، ويلصق يد نافرة هناك بيد أختها، أو يصحح حركة غير متفقة، ثم ترديد لفظ الجلالة الله على سرعات متدرجة من البطء للتوسط للسرعة جهرًا،

ثم الذكر بلفظ الجلالة الله سِرًا ثم مشاهدة، ثم «حيّ»، ثم السجود لله شكرًا على المحبة، ثم لا إله إلا الله ثلاثًا، ثم قراءة ما تيسر من القرآن الكريم، ثم يجتمعون على طعام لا يتجاوز بعض ثمار الفاكهة، أو الأرز باللبن، أو بعض كسرات الخبز والملح. لتنير في بعض الأحيان أخشاب المندرة، أو يغلي إبريق الشاي بدون نار، وكان سيدي أبو جمالة وسيدي السيد العيساوي يحرصان كل الحرص على عدم إعلان ما يدور أثناء الحضرة من كرامات حسية، كانت الاستقامة ما يحرصان على إظهارها من كرامة، وكان سر الطريقة في أورادها المباركة.

وكان الإمام البخاري يأتي معاتبًا سيدي السيد العيساوي، على إفراده صحيح مسلم بالتلاوة، فكان سيدي السيد يقبل يد الإمام البخاري مُعْتَذِرًا بامتلاكه السند عن مسلم فقط، فابتسم البخاري ابتسامة القمر بين السحب، فقال: «وهاك يا سيد السند مني» فكان للسيد سندًا متصلًا مباشرة للبخاري... فكان يراوح في القراءة بابًا من مسلم وآخر من البخاري، ليشيعَ حديث رسول الله بين فلاحي القرية، فيتعجب المعمم و«المكوكل» من أزاهرة القرى المجاورة، من فلاح يروي حدِيثًا بسنده للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيعلم أن بركات الأحمدية البندارية قد حلت على تلك القرية الآمنة لتفيض على من حولها.

صارت المندرة البندارية خلية نحلٍ لا يهدأ طنينها ولا يصمت، ففي الصباح يباشر الشيخ أبو جمالة مهام مراجعة القرآن وتحفيظه للصبية والرجال ولكل من أراد، إلا أن شغله الشاغل كان منصبًا على كرام البصر، ففي تلك الأيام لم يكن طب العيون كما هو عليه الآن من تقدم، ولم تكن الرعاية الطيبة كما ينبغي خاصة في الأرياف والقرى، فكان أقل مرض عيون من رمد أو مياه بيضاء كفيلاً بإصابة صاحبه بفقدان البصر، فقام الشيخ بإحصاء كل من فقد بصره، ودعاهم للمندرة وعرض عليهم أن يحفظهم القرآن، يكرمون به أنفسهم ويزكونها، ويكفيهم عز القرآن سؤال الناس.

تجمع لديه الكثير منهم، كل منهم قد نهل من القرآن بما قد قسمه الله له، ولم يداوم على ذلك غير ثلاثة: الشيخ حسين البسيوني، والشيخ حامد، والشيخ فايد، كلهم في سنوات معدودة قد أتم حفظ القرآن تلاوةً وتجويدًا، وبلغ من الأداء مبلغًا عظيمًا، كلهم مَنَّ الله عليه برخامة الصوت وحسنه، فكانت تتخطفهم البلدان المجاورة لإحياء الليالي ومواساة أهل الموتى بما تيسر من آي كريم.

وأقام كل منهم بناحيته كُتابًا للتحفيظ والقراءة فانتشر الحفظة، والمجيدون المهرة بالقراءة.

وكان سيدي الشيخ فايد آيةً من آيات الله بصيرة وذكاء ومهارة، حتى أنه كان يفطن لمقالب الفلاحين ومداعباتهم فيفسدها عليهم، وكان يستطيع «لضم» الإبرة حتى شكَّ الكثير في مسألة فقده للبصر،

وأقسم البعض على أن الله كان يرد عليه بصره بأوقات الشدة والحاجة، فكان بجانب القرآن مريدًا مخلصًا للطريقة، فما فاتته حضرة من حضرات البندارية، وكان له دعوة مستجابة لا ترد. ويلوح الآن على حدود القرية مسجده المبارك المسمى باسمه فما دخلته إلا تنسمت فيه السكينة، والمحبة وانشراح الصدر.

وكان الشيخ حسين بسيوني قارئًا ندي الصوت، وبجانب ذلك كان منشدًا، ومداحًا لا يشق له غبار؛ فتصدر منه ألحانٌ فطرية بديعة. والغريب أنه كان يعدد المقامات الموسيقية بما يناسب ما ينشده، فتراه يتنقل كأمهر العازفين من السيكا للصبا للنهاوند بكل براعة على آلته الموسيقية التي لم تتعدَّ الكوبَ الزجاجيَّ والملعقة، ولا يدانيه في عذوبة صوته غير الشيخ حامد.

وكان صيت الشيخ حامد كقارئ ومنشد قد انتشر لخارج حدود القرية حتى وصل لحدود الغربية، فكانت العائلات الكبرى تتخطفه في شهر رمضان ليصلي بهم القيام ويحيي ليالي الشهر الفضيل بإنشاده، ومدحه خير البرية صلى الله عليه وسلم.

10

موكبٌ من فرسانٍ أربعة، تعلوهم مهابة قواد جيش، لينةٌ قسماتهم بسيماء رحمة وعطف لا تخطئها عين، تتغشاهم موجاتٌ متلاحقة من ضباب كثيف، وسماء تدثرت نجومها بجبال غيم يطارد بعضها البعض، وتلاحقها بلا هوادة أسواط ريح صارخة، تجيبها أوراق أشجار الجازورين إبرًا خضراء قائمة، بصفير حاد يداعب الآذان كناي لا يملك غير نغمة واحدة لا يحيد عنها لوعة وشوقًا لحبيب رحل بعد دوام هجرانه.

ولسبب ما تتداخل الأزمان في مشاهد متلاحقة، فترى عقودًا تتقدم، وتتأخر أخرى، ربما لكسر رتابة السرد، ربما للتأكيد على فكرة ما، تظهر لتسارع في الاختفاء؛ أن الزمن بوحداته محض تركيبٍ مُتَخَيل، يمارسه العقل الإنساني كأداة وضعية للتصنيف ليس إلا، فلا نصيب للزمن من واقع حقيقي، أو لأن ظهور هذا الموكب من أولياء القرية القدامى قد أثر في تدفق الثواني، فهامت في جذبة شديدة سلبتها ما جُبلَت عليه من تراتب صارم، ربما كان هذا هو أقوى الأسباب بَعيدًا عن ضرورات السرد، أو مقولات الفلسفة.

سيدي حمزة، سيدي الجويني، سيدي المنسي، سيدي العراقي... كلهم يتجه نحو مبتغاه، هم على موعد مع الأحباب في حضرتهم، فلا حديث منذ أن فتحت مقبرة عم إبراهيم عبده، وكان ذلك في التسعينات- لاحظ أننا ما زلنا في منتصف الأربعينيات- ولكنها جذبة الزمن، إلا عما رآه الناس وتناقلوه حتى تغشت الأخبار ما جاور من قرى وكفور وبلاد، فبالرغم من مرور الزمان، فكان انتقاله في الثمانينيات، فما زال جثمانه كما هو، غضًّا طَرِيًّا وكأنه مازال ينبض حياة، وتتدفق شرايينه برجع قلبه المسبِّح. ففضلًا على جواز ذلك شرعًا بما تواتر من أحاديث، وما سبق سرده من تبشير الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بذلك، إلا أن الناس كانوا على عادتهم بين مصدقٍ ومكذب، فلاَ تَثْريبَ على هؤلاء ولا على أولئك، ولا لوم على معتقدٍ أو نافر، كلهم تحت سحائب الرحمة وأقلام القدر.

وحين انتهاء الحضرة تسرعُ فتاة صغيرة تهمس في أذن السيد العيساوي، فيتهلل وجهه الوسيم الأبيض، تجرى من أثر انفعاله دماء السعادة في وجنتيه.

يعرف الجميع ما قد بُشِرَ به بعد ثوانٍ معدودة فقد وُلِد له لتوه غلام، يصل ما قد مضى بما هو آت.

- بماذا سوف تسميه يا شيخ؟
- نسَبْتُه لسيدنا الإمام أبي عبد الله الحسين؛ فهو حسيني.

وكان سيدي أبو المعارف العيساوي قد زار ولده السيد، وبشره بذلك، وقرر في سرعةِ مَن حَزَبَه موعدٌ قد آن، فقدر الحسيني السيد العيساوي البحث، سيبحث طيلة حياته كجده، وسيكون له شأن لا يُنكر، وأوصاه به خيرًا، وأعطاه ورده، وكان نصيبُه من وِردِه كأبيه أي طلب العلم، إلا أن جدران خلوته ستكون من الكتب لا من الحجر.

كان الحسيني مازال يتعثر في جلبابه، يتلقاه الجد مُرَحِّبًا به في خلوته فما كان لأحدٍ أن يدخل عليه خلوته إلا حفيدُه المحبب، فيرحب به الجد ضاحكًا مداعبًا، وربما أنبت الله أعواد قصب السكر داخل الخلوة، لينتقي أبو المعارف منه ما يشاء، يقشر لحفيده الحبيب عقلة أو اثنتين، أو يمتطي الطفل عودًا كحصانٍ يعدو، فيتعجب الناس كيف دخل لخلوة جده خالي الوفاض، وكيف خرج بعود من القصب.

فكبر المجلس وصدح سيدي أحمد الصعيدي بمنظومة البندارية، كان قد غادر عتبة الطفولة لباكر شبابه الغض الأخضر، وعلت صوته غلظة خشنة محببة ضاعفت من ذلك الشجن الملازم لأدائه، يصل مشايخ البندارية بعضهم ببعض، لينتفض المجلس بآهات ولهةٍ، هائمة يصدرها من الحين للحين سيدي إبراهيم عبده.

وكان أكثر الحاضرين إنصاتًا الأولياء الفرسان الأربعة، فسوف يغادرون عن قليل إلى الديوان فهُم أيضًا في عجلة من أمرهم.

ولم يكن من شغلٍ يشغل عم سليمان الصعيدي إلا أن يزوجَ ولده الشاب أحمد، فجدَّ في البحث حتى وجدها، فتاة من أصل طيب، ذات خلق ودين، وتدبير وإخلاص، لم يكن لسيدي أحمد إلا أن يفرح باختيار أبيه، ويسعد.

قاموا على عجلٍ بالاتفاق على صندوق العروس، وحصيرة، ووسادتين صغيرتين، وأخرى طويلة، فلن يتغير مكانُه ولا مستقرُّه، فهي ذات الحجرة بذات الدار الكبيرة التي يجتمع فيها الأب سليمان وأسرته، والجد محمد وأسرته، والأعمام وزوجاتهم وأولادهم، وكان للشاب أمنية أسرَّ بها لأبيه وهي أن يمتلك مرتبةً قطنية، فأمر عم سليمان المنجد بصنع مرتبة، على غير عادة القرية في ذلك الوقت.

وكان الأب والابن والحفيد في الحضرة قد اجتمعوا مع الأحباب، أجيال تلتقي على المحبة مع أجيال، وأيامٌ تمر، وسنون تُطوى، وأعمار تبدأ لتنتهي، ليشهد الجميع مقدورهم ويسارعون.

وفي نهاية الحضرة يشعر العم سليمان بضيق في نفسه، وكأنه يتنفس من ثقب أبره، فينهض الشيخ والجد والحفيد، كلٌ يطمئن نفسه بكلمة تيسر الأمر، ويسارع أحد الأحباب ببعض الماء، والآخر يُقلِب سُكرًا فيذيبه في كوب ماء، وينظر العم سليمان للجميع برضا ثم تجول عيناه بجدران المندرة، يسلم على لبناته لبنةً لبنة، فبينهم ودٌ، ومحبة تسبيح وهيام، يعرفهم ويعرفونه منذ أن كانوا ترابًا.

تغيب عوالم رويدًا، وتظهر أخرى، تسيل أنفاسه ماءً قد أنفك من محبسه يتسرب قطرة تلو الأخرى، ينهمك الأب في الترحيب بضيوفه كعادته كلما جاءه ضيف، يودُّ لو يُعد لهم ما تيسر من قِرى الضيف، فتراه يضحك حينًا ويتحدث حينًا، يرتدي على عجل تشريفة الباشوات حين يهدي لهم الملك رتبة الباشوية. طربوشٌ طويل مستقيم، وبِزَّة رسمية مزركشة سوداء، ووشاح أخضر، متمنطقًا بسيف يلمس برفق الأرض المزينة بالجرانيت الملكي، يأخذ وضعية التصوير، ويقوم المصور بضبط ماكينته بزاوية محترف، يبتسم ابتسامة رائعة.

يعرف الجد كيف تستقبل هذه العائلة هذا الضيف المتخفي الخطو، يعرفه جيدًا في وجوههم، فسارع بترديد الشهادة نيابة عن الابن.

كان اللقاء الأول والشاب أحمد الصعيدي، ماذا يفعلون، وكيف يقولون حيال هذا الضيف، كيف تتجاور الأيام هكذا على هذا النحو العجيب، وهل يتكرر اللقاء مرات طالما كانت الحياة، وككل البدايات كانت استحالات متوهمة، تسارع نحو الممكنات، وما تلبث إلا أن تصير عادة من العادات.

❁

لم تكن العلاقة بين السيدين أحمد الصعيدي وأبيه سليمان كأي علاقة بين أب وأبيه، كانت معبرًا لغاية ما، ومنذ ودع الشاب أحمد

الصعيدي أباه، ساجدًا بين جدران المحبة والعشق، وكان العبور نحو الشيخ السيد العيساوي.

ولما عصف الحزن بقلبه الغض، لازم مقام سيدي شبل، لا ينقطع سيل دموعه، ولا يسلو الحزن أصحابه، فقلما يجد الحزن صَدِيقًا وَافِيًا، وكان سيدي السيد العيساوي دائم البحث عن فتاه الصعيدي، ولما لم يجد للفتى من أثر في القرية، علم أنه في رحاب آل البيت.

ولما سلم الفتى قلبه لابن عم النبي، سرَى عنه فنامت العين ولم يغفل القلب، فإذا عوالم من نور، وإذا بأبيه يسجد، فيعجب هل مازال حيًا، فلما اقترب من موضع سجود أبيه، إذا بالنور يتغشاه فلا يرى من الوجود إلا جوهره الواحد، وإذا بأبيه يقوم من سجدته كأنه البدر في ليلة اكتماله، وما تلبث الوجوه إلا أن تتبدل؛ الجسد جسد سيدي سليمان والوجه وجه سيدي السيد العيساوي، وإذا بعرسٍ ومواكب ورايات.

فيصحو سيدي أحمد على أذان الفجر، وإذا بالسيد العيساوي، يهتف: «استقم»، وإذا بالجسد جسد سيدي السيد العيساوي وإذا بالوجه وجه سيدي سليمان، فيهتف سيدي أحمد: الله ... فإذا بسيدي شبل يقارع المنكرين بالحجة والبرهان.

يصلي المريد وشيخه الصبح، فيسأل الشيخُ المريدَ: «هل مازال في قلبك من دمع؟!» فيجيب دمع العين: «لا».

يسيران سويًّا ناحية شمياطس...

- أنسيت خطيبتك يا أحمد؟
- بل نسيتُ الوجود وذكرتُك...

يتم العرس ويدخل العروسان، ولكن لا أثر لحشِية القطن...وإذا بالجد محمد يخبره: «مرِضَ فلان الفلاني، ولم يجد ما يريح جسده المنهك عليه، فقصدنا فأعطيته إياها، ليس في الدار غيرها»

فترحب ويرحب، وهكذا كُتِب العطاء سنة على آل الصعيدي.

فعن الإمام علي كرم الله وجهه قال: «جَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي خَمِيلٍ[1]، وَقِرْبَةٍ، وَوِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ[2] حَشْوُهَا لِيفٌ» رواه أحمد، وفي رواية ابن حبان: «وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سريراً مشرطاً بالشرط، ووسادةً من أَدَمٍ حَشْوُها ليف».

وأسر لي الشيخ: «لا تعجب فهكذا يغار الله على أوليائه من الدنيا».

❁

[1] قطيفة

[2] جلد

ومن يومها ولم يبارح سيدي أحمد الصعيدي مجلس سيدنا السيد العيساوي، ولم يبارح سيدي السيد العيساوي مندرة الصعيدي ليلة، لا يشغلهما غير الذكر وتدارس العلم، ويطوف سيدي أحمد مع الشيخ المساجد، ومواطن الدرس، فيزداد معرفة وعلمًا، وما من كلمة يسمعها إلا ويعيها ويحفظها.

وما هي إلا شهور تسعة فيجود الله عليه بولده البكري، فيسميه سليمان، ولم يكن لسيدي أحمد من متاع الدنيا غير بقرة صفراء، فاقع لونها، تسر الناظرين. وكان كلٌ من الأعمام، وأبناء الأعمام، يزرع تلك البقعة الصغيرة من الأرض، كل على جهده، وكل يأخذ قدر حاجته، ولم يكن لسيدي أحمد طاقة على أعمال الزراعة، ولم يكن في عقله فسحة لمشاغل الفلاح الرتيبة الموسمية.

كان يتوق بكل قلبه لمجاورة آل البيت بقاهرة المعز، فلا تمر ليلة إلا وجاور في منامه مقام النفيسة، أو مقام المشيرة، أو مقام أبي الشهداء ولي النعم، فيصحو ليزداد لهيب الشوق، فيشكو لشيخه فيصبره بوصل قريب.

وكان القطن ملاذ الفلاح، بمحصوله يجهز البنت ويزوج الولد، ويسدد مديونياته، ويفي بالتزامات حياته، إلا أن القطن العام قد أخلف وعده، وما عليه فقد التهمته الآفة، واجتاحت القرية الحاجة، ولا صبر

لذوي المديونيات على دينهم، ولا صبرَ لطفلٍ على جوع، أو بهيمة على مَخْمَصة.

فلم يجد الجد محمد من حل غير بيع ما يمتلكونه من يسير بقر وجاموس، وكانت بقرة سيدي أحمد أول ما بيع..

باعوا ما يملكونه من الماشية لتُشتَرى بها حبوب الذرة من الخطاطبة، وكان موسم حصاده هناك يسبق موسم الحصاد عندنا لكي يصنعوا منه خبز الذرة، المضاف إليه الحلبة وكان يُقَدَّم مع اللبن الرائب للأبناء، والمجاذيب الذين كانوا يتوافدون على البلدة من خارجها، أو لأي عابر.

ومع ضيق العيش، وندرة الرزق، وشدة الشوق؛ جاء الوعد، وقرب اللقاء، وأمر الشيخ مريده بالرحيل لمجاورة الآل...

ليصلي سيدي أحمد وزوجه أم سليمان الفجر بسيدي شبل، ليسرع القطار بدخانه مُبشِّرًا، بصافرته واعدًا وصلًا وبشرى، ومحبة وعشقًا.

✠

وحينما وطأت قدماه القاهرة، سأل أول ما سأل عن كيفية الذهاب لمقام النفيسة فإذا بسيارة تقف حياله، تقودها هانم من هوانم الخمسينيات تألقًا ووضاءة، تنير ابتسامتها الحانية ملامح بشرتها البيضاء المشربة بدماء الحيوية والرواء، «ذاهبة للنفيسة، هلم معي»

فقبِل سيدي أحمد الصعيدي، وكان قد ترك زوجَهُ وطفله لدى أحد أبناء خُئولته بحي شبرا العامر، من أبناء سيدي ولي الله محمد البسيوني خادم مقام الحمزة.

جلس سيدي أحمد بالجوار، لم تنبس الهانم ببنت شفة، وطار هو بهجة وفرحة فقد آن اللقاء بعد طول شوق، ليمر بحي السيدة زينب، ومقام المشيرة، يحسبه المقام المرتجى، فتبتسم الهانم: «ليس بعد.. ولكن الوزيرة تزار قبل المشيرة، لأخذ الإذن والإشارة»، يمر بآثار خلفها الأقدمون، فهذا سورٌ طويل كان يحمل المياه من النيل يحيط بالقاهرة الفاطمية، وهذه مقابر الإمام تحمل شواهد لباشوات ووزراء، ومقابر بلا شواهد ولا إشارات، يسكنها من نُسِى بطيات الزمان المتلاحق، الكل سواء في الصمت والسكون، من ملأ الدنيا ضَجِيجًا وصَخبًا بعظمته، ومن تحاشى الدنيا وتحاشته، فلم يُسمع له فيها صوتٌ، ولم ينادَ عليه فيها باسْم، فإذا بالهانم تقف بجانب قبرٍ مهدم، وتقرأ الفاتحة، وإذا بالصعيدي يتبعها ويقرأ... «أتدرى...؟ صاحب هذا القبر كان ينتظر فاتحتك قبل ميلادك بأزمان»، وفي طريقهم يجتمعون على السيارة يطلبون الصدقة، فتنثر الهانم عليهم من خيراتها، ويخرج الصعيدي أحمد محفظته، ليس بها إلا جنيه وجنيه ونصف وربع وورقتان بعشرة قروش وأخرى بخمسة، «تَخَلَّ يا صعيدي، فهو أوان التخلي»، فيعطي ويعطي ويعطي، وكانوا في عام الجدب قد باعوا ماشيتهم ليشتروا من

بلدٍ بعيد، ينتج الذرة قبل بلدهم، فطحنوا الذرة وخلطوها بالحلبة، وخبزوا أرغفة بكل ما ملكوا من ذرة، قالوا: «لعلهم يدخرونها، يتدثرون بها من زمهرير الجوع والحاجة»، فإذا بمندرة الصعيدي سليمان تفتح أبوابها الثمانية لكل مسكين وفقير ويتيم وذي حاجة. والناس تتعجب... ليسوا بالأثرياء ولكن يغار الأثرياء من كرمهم، ففتحت قصور الكبراء أبوابها وأخرجت أثقالها تطعم وتبذل كبذلهم.

وعلى أعتاب النفيسة يتخلى سيدي أحمد الصعيدي، ووجده يسبقه، تأخذ الهانم بيده نحو المقام، لتفتح الأبواب وتلج الهانم وتغلق عليها الأبواب. والصعيدي يشاهد ويقرأ ويقرأ وتسبقه دموعه، «وهل مثلي يا سيدتي من يستحق كل هذا الكرم...».

✠

عمل سيدي أحمد الصعيدي مع أبناء خاله في صنع اللبن ومنتجاته، وكان يستيقظ مبكرًا لتوزيعه، فيتنقل من بيت لبيت كالفراشة، ويتذكر تلك الأيام التي كان ينظر إليه فيها أبوه مشفقًا عليه من ثقل الفأس، وضعف البنية، وقلة الجهد، ويفرغ سريعًا من عمله بالساعات الأولى من الضحى، ليتفرغ طيلة اليوم لزيارة آل البيت فذاع صيته سريعًا، وكأنه ولد بتلك المدينة الساهرة، الصاخبة، مترامية الأطراف، سرعان ما أُطلِق عليه «اللبَّان» نسبة لعمله، ولم يكن يحلو له إلا الجلوس يومًا بجوار السيدة زينب، وآخر بجوار أبي الشهداء

الحسين، يبذل معظم ما يكسبه صدقات وعطايا، واكترى سيدي أحمد مسكنًا بحي شبرا، كان مقصِدًا لكل من جاء القاهرة من أهله وأصدقائه.

وكانت أيام عيد سيدي محمود قدوم شيخه السيد العيساوي عليه، يبدأون زياراتهم من سيدنا الحسين ثم الأزهر حيث يلتقي الشيخ مع أقرانه ومشايخه، ثم يقضون بقية يومهم مع الشيخ صالح الجعفري؛ رفيق صبا الشيخ وشبابه، يتحدثون في مسائل العلم ظاهره وحقيقته، ويتشرب سيدي أحمد منهم ما يسمع؛ على دقة وصعوبة ما يتحدثون فيه من مسائل.

وحين يفرغ سيدي السيد العيساوي من زياراته يتوجه ومريده نحو بيته بشبرا يمكث معه أَيَّامًا، لا شغل لهم فيها غير أن يقرأ عليه متون الكتب وشرحها.

وفي أعوام متقاربة رزقه الله بمحمود ومحمد وسناء وعبد المقصود.

وبالرغم من سعة الرزق إلا أن الشيخ أحمد كان كثيرًا ما يقع في ضيق ماليٍّ جراء كثرة بذله وعطائه، وكرمه، فعلم بمقدم الشيخ ولم يكن بالبيت قرشٌ واحد، فذهب مهمومًا، يلوذ بالحسين، وجلس على أحد الأرصفة منشغلًا بالصلاة على النبي، وكيف سيكرم شيخه القادم، فإذا بسيارة تتعطل، ويسأله قائدها أن يدفع السيارة، وما أن وضع

سيدي أحمد عليها يده حتى انتفضت السيارة وتحركت، فنادى قائد السيارة على الشيخ، وأعطاه ثمانية عشر جنيهًا، كان المبلغ بمثابة ثروة في ذلك الوقت، فاستبشر الشيخ، واشترى من خيرات الله ما حمله على عربة «كارو»، وتوجه به إلى البيت فإذا بالشيخ ينتظره، ويباسطه ضَاحِكًا: «بالنصف يا شيخ أحمد!»، فيرد عليه: «النصف كله؟!!»، فيرد عليه: «يعنى هو أنت كنت (زجيت)[1]؟!»

فيضحك الشيخ السيد العيساوي، ويقول: «من أكرم يُكرَم، ومن خدم يُخدَم فافهم».

✠

وبلغ مقدار ما يوزعه سيدي أحمد الصعيدي من اللبن ومنتجاته نحو الربع طن، مما أثار حسد وحنق الكثيرين، وفي ذات صباح باكر خرجت له امرأة قد تخففت من ملابسها، سلمها ما تطلبه، وفرَّ من المكان لبيته، فرار جؤذرٍ من عين قَسورة.

محمومًا لازم فراشه، حتى أن أولاده وزوجه هم من تولوا التوزيع بدلًا منه، وكان قراره بعدم التوزيع الصباحي باتًّا لا تراجُع عنه، فلتذهب كل أموال الأرض وكنوزها إلى الجحيم في سبيل حفظ صفائه، ونقائه، حتى وإن كانت مجرد نظرة محرمة لا تحل له، علم سيدي أحمد أنها الفتنة

[1] دفعت السيارة (لهجة أهل شمياطس: تحويل القاف جيمًا فتكون "زقيت" أي دفعت السيارة" زجيت")

متخفية في إهاب آلاء البسط في الحياة ومتاعها، وعلم كذلك أنه الابتلاء، وكان كل وجله وخوفه، ألا يثبت حيال هذا الطوفان القادم، والعاصفة الهوجاء التي لاحت في سماء محبته الصافية.

حاول الشيخ فتح محل لتوزيع اللبن بدلًا من توصيله للبيوت، فاكترى محلًا بمنطقة دوران شبرا على مساحة واسعة للغاية، وكلفه إعداده معظم ما توفر لديه من مال، ولما بدأت تجارته في الازدهار، نظر أحدهم إلى زوجه نظرة أغضبته، فقرر إغلاق المتجر.

فشارك أحدهم في متجره، وبعدما كان المتجر على وشك الإفلاس، ازدهرت تجارته، وفاضت أرباحه، إلا أن نفس شريكه قد فسدت، فأنكر فضل سيدي أحمد الصعيدي، وفض الشركة، بعد جحد مستحقاته.

وكانت هذه العبارة لا تفارق لسانه، نابعة غضة طرية من قلبه: «كل مصيبة في غير القلب هينة».

أتت التجربتان على أموال الشيخ، بل وأوقعته في ديون واسعة، إلا أن سيدي أحمد قد تلبس وانهمك بعبادة انتظار الفرج، وحسن الظن بربه، ومع ما هو فيه من ضيق وضنك، لم ينقطع مرة عن ملازمة أعتاب آل البيت، وود أحبابهم، ما كان يقطع قلبه ألمًا عدم قدرته على البذل كما كان، كان يبكي بكاء مرًّا كلما سأله أحدهم بذلًا فلم يستطع

العطاء كما تعود، فتنهمر دموعه، فيشاهد أولئك الذين أقعدهم العذر عن مصاحبة رسول الله ﷺ فيتلو قول الله باكيًا خاشعًا أمام روضة حفيده أبي عبد الله الحسين: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾

فكان السبط يأتيه مواسيًا، مذكرًا إياه بمحنته فتنهلُّ العبرات بلا انقطاع، شوقًا وإشفاقًا من فقدان نعمة القرب وأنسه...

فكر في العودة إلى التوزيع، ولكن بالفترة المسائية، فقد قرر عدم العودة للتوزيع الصباحي حيث تكثر به الفتن، إلا أن الطلب المسائي على اللبن يقل بكثير عن الفترة الصباحية، وبدراسته لأحوال التوزيع، علم أن ما يستطيع توزيعه لا يزيد بأي حال عن الثلاثين كيلو. فكيف يسدد ما تراكم عليه من ديون، وكيف يفي بما ناء به كاهله من أعباء أسرته الكبيرة، ولما ضاقت به السبل إذا بالشيخ السيد العيساوي يطرق الباب...

سأله عن أحواله، فشكى له سيدي أحمد الأحوال والديون، وأنه مخافة الفتنة فعل ما فعل ...

فأطرق الشيخ ساعة كاملة، واضعًا رأسه بين راحتيه، ثم رفع رأسه مستبشرًا باشًّاً..

«في الثلاثين كيلو لبن البركة يا أحمد...توكل على الحي الرزاق»

سادت أجواء الاحتفال والفرح مندرة أبي المعارف العيساوي، لتصدح حناجر مشايخ البلدة بالإنشاد والابتهالات، وتمد الموائد بطيب الطعام والشراب، وينير وجه سيدي السيد العيساوي بالبشر والفرح، فاليوم قد نال ولده النجيب الحسيني الثانوية الأزهرية بتفوق، بعد جد واجتهاد في التحصيل، وبذل الساعات والليالي في حفظ المتون ومراجعة القرآن والسنة.

وفي ركنٍ قصيّ من المندرة جلس الشيخ أبو جمالة وسيدي السيد العيساوي وابنه الحسيني مرتديًا الزي الأزهري تعلوه علامات الجد والنجابة، وأنوار جده وأبيه، وسلسلة المشايخ البندارية الممتدة للعترة، والدوحة النبوية المباركة... ليبادره الشيخ أبو جمالة بالسؤال:

- أي كلية وقع اختيارك عليها يا حسيني؟
- كلية اللغة العربية يا سيدي...

ليتدخل سيدي السيد:

- ولكنها كلية صعبة، وتحتاج الكثير من الاجتهاد...
- ولكن اللغة العربية مفتاح التبحر في شتى العلوم الشرعية قاطبة، أريد أن أخوض بها بحور الشريعة، وفهمٍ أمثل لكتاب الله عز وجل.
- صدقت يا ولدي...

ليتدخل أحد وجهاء القوم الذين طرأوا على مجلسهم الضيّق:

- ولكن دراسة اللغة العربية لن تؤهلك إلا للتدريس في معهد من معاهد الأزهر الثانوية أو الابتدائية، عليك بكلية الشريعة، بها تستطيع الحصول على منصب في القضاء، وأنا ضمين بذلك.

فيرد عليه الحسيني بصوت مؤدب خاشع:

- ليست المناصب بغيتي يا عماه، أريد مزيدَ فهم وفقه، وتفرغ للقراءة والتحصيل، هذا هو أملي وهدفي في تلك الحياة ...
- نعم، لله دركم يا آل العيساوي استبدلتم الأراضي والمناصب بالعلم والتعليم والكتب والأوراق.

فيبادر سيدي أبو جمالة:

- رضي الله عن جدك وأبيك يا ولدي...

وكان سيدي أحمد يوزع ما يسره الله له مساءً، فيُفيض الله عليه ببركات في الرزق الذي كان يفيض عليه ومن حوله.

وأشار عليه أحدهم أن يوزع مشروب العرقسوس صباحًا، فتطوع بشراء أدوات توزيعه، فلم تكن تمر عليه ساعة من نهار إلا وقد فرغ من توزيع حصته، ما شرب منه أحد إلا وتملكه حال من البسط والسرور، فيأتي يومه الثاني، لا يشغله غير البحث عن سيدي أحمد ومضاعفة الشراب، يخبر البعيد والقريب، فيسرع طالبًا من شراب

سيدي، كلهم يبحث عنه، ويتهافت على جرعة من ذلك السر المتخفي في كوب عرقسوس.

سدَّدَ سيدي أحمد ما عليه من ديون في أقل من عام، وفاضت الأموال، وكان قد اقترب مولد المشيرة، فقرر إقامة خدمته الكبرى في رحابها، يطعم ويخدم بخفة وهمة حيرت كل من شاهده.

فتقاطر الأحباب على خدمته من قريته وغيرها من قرى الشهداء وأجوارها، وكان سيدي أحمد قليل الكلام والحديث، فلا تراه إلا ملتبسًا بحال الصمت، تعلوه هالةٌ من نور ومهابة شديدة، وكان أول من حضر الخدمة سيدي عبد الحليم طولان، فلما شاهدَ النور انتابه الخوف عليه، فلم يفارقه في رواحه ومجيئه وكأنه صار ظلًّا لا يفارقه، حرصًا عليه، وإشفاقًا.

جاء سيدي أبو جمالة وسيدي السيد العيساوي إلى الخدمة، لتقام الحضرة، وتفيض الأنوار، وتهل النفحات الربانية من كل مكان.

ولازم الشيخ مريده حتى يوم الجمعة فذهبوا لزيارة سيدنا الإمام الحسين، ثم انتقلوا إلى الأزهر لسماع خطيبه المفوه سيدي صالح الجعفري... دخل سيدي السيد، ومن خلفه سيدي أحمد الصعيدي، فهرول ناحيتهم سيدي صالح الجعفري، وكأنه كان منتظرًا لهم...مُرحبًا بصديقه القديم ومريده، مصممًا كل التصميم أن يصعد سيدي

السيد العيساوي المنبر الكبير لإلقاء خطبة الجمعة:

- كيف وقد أقيمت لك؟
- كيف وكل هذه الأنوار عليك!

إلا أن سيدي السيد قد أصر أن يجلس تحت المنبر بعد أن اتكأ سيدي صالح على زنده، وخلفهم يسير سيدي أحمد.

وبعد الفراغ من الخطبة والصلاة صحب الشيخ صالح الشيخ ومريده إلى حجرته، لتناول الغذاء، ثم خاضوا في بحور من العلم الظاهر والباطن، ومرة تلو المرة كان ينظر من طرف خفي إلى الصعيدي، ويبالغ في الترحيب به، وإكرامه. انطبع حديثهما، ونقش في قلبه، وتشربت روحه بفيض أنوار المعرفة، وضاقت العبارات عن صوغ ما سمعه.

11

وخاض سيدي السيد العيساوي بحار الحقائق، بعدما تمكن من بحر الشريعة، فتكشفت له الحجب، واغترف من دوحة القرب، فكان من الحين والآخر يلفظ كلمة أو عبارة تكشف عن عظيم المعاني، ولكنه لم يكن في وسعه البوح بكل ما يتكشف له شفقة بالخلق ومحبة، وكان في اليوم الواحد ينتقل من مكان لآخر مما يستغرق فيه الناس عادة أزمانًا طويلة لينتقلوا إليه، وكم كان يكره ويتحرج أن تظهر عليه أمام الناس كرامة، فكان يقول: «يتحرج الصالح من إظهار كرامته، تحرُّجَه من ظهور عورته عفوًا أمام الناس». فكان الستر والخفاء من أحب أحواله، فكان يسلم بالظهور تسليم المكره على خوض غمار مصيبة من مصائب الدنيا... فلا ينقطع من ترديد اللهم سلم... سلم.

وهل ينسى كيف أَنَّبَهُ يومًا شيخه محمود البنداري حينما جاء لحضرة البدوي....

- أتكثر الالتفات في مجيئك لحضرته؟
- أوَحْيٌ بعد رسول الله يا سيدي؟
- بل تلازم الأرواح يا سيد..

فيُغشى على السيد، وبعد يوم يهمهم: «انتقلتُ إلى مقام الإحسان بعبارة من الشيخ، فكأني أرى الله في كل لفتة وخاطرة، فإن لم أكن أراه فهو يراني».

وكان اليوم من أيام رمضان القائظة، وكان الشيخ طيلة ليلته عند سيدي أبي جمالة المتدهورة حالته الصحية، يلازمه ويطببه مع ولديه جلال وعتمان، وكلما أفاق الشيخ سارع في تلاوة القرآن، حتى هدأ الشيخ وانتظمت أنفاسه، واستغرق في نوم هادئ، ليسارع سيدي السيد للإصلاح من شأنه، ولأخذ حصة ضئيلة من الراحة بعد تلك الليالي الطويلة التي قضاها بجانب الشيخ، ولكنه ما أن ولج عتبة داره حتى أتاه جلال مسرعًا...

- أبي يُحتضر يا شيخ

فيسرع معه الشيخ سيد ليسمع تهليل أبي جمالة...

لا إله إلا الله... لا إله إلا الله ... وكأنه يقود حضرة البندارية، فيقترب منه الشيخ فإذا وجه أبي جمالة ينير كالبدر في تمامه، وإذا به يهتف مناديا مُرحِّبًا: «مرحبًا برسول الله...» ويسلم الروح، كأمانة طال حملها...

يشرف الشيخ سيد على تجهيزه، ويصل سيدي أحمد الصعيدي بدون إخبار من أحد إلا أنه علم بالخبر منذ فجر اليوم، فأسرع من القاهرة

مستقلًا أول قطار...

وتُصلَّى الجنازة على الشيخ، وتفتح مقبرة عائلته لاستقباله.

وكان من عادة الشيخ الإشراف على أسر اليتامى والأرامل يقضي حوائجهم، ويبرهم ويتولى تربية أبناءهم بنهجه القرآني المنير، وتأبى جنازته السير في المسار المعتاد من الجامع للمقابر مباشرة، فتمر على كل أسرة من تلك الأسر تودعهم، كأنها تطمئن على أحوالهم كما كان يطمئن في حياته، ولا تبارح مكانها إلا بإقامة الحضرة البندارية، وهكذا سار الأمر من أسرة إلى أسرة، حتى سلكت الجنازة طريق سيدي شبل لتزوره... فيقترب الشيخ سيد منها ويخاطبها جهرًا...

- يا سيدنا كلنا يعرف مقامك، واليوم صوم فارفق بمشيعيك..

فتنصاع الجنازة، وتسلك نحو المقابر، ولكنها تأبى مقابر الأسرة، وتسير نحو خلوة الحاج حلمي البكري، فيكبر الناس ويجاور سيدي أبو جمالة أحبابه برزخًا كما جاورهم دنيا... لتظل جنازة أبي جمالة مما يؤرَّخ به في القرية، فيعدها الناس من أيام الله، لا يفتأون يذكرون حكايتها جيلًا بعد جيل.

كَذَا بِأَبِي جَمَالَةٍ رَقِيَ الْعُلَا بِما قَرَأَ الْقُرْآنَ سِراً وَمُعْلَنَا
فَيَا ذَا العُلَا نَدْعُوكَ أَكْرِمْ نُزُولَهُ وَبَلِّغْهُ مَا يَرْجُوهُ مِنْكَ وَعُمَّنَا

12

هي رحلة الحج المأمولة من زمن طويل، واستغرق سيدي السيد العيساوي بكُليَّته في العبادة، لا يفرغُ من عبادةٍ حتى يشرع في الأخرى، لتنتهي مناسك الحج، وكان الإنهاك قد أخذ منه مأخذًا عظيمًا.

يستعد للرحيل من مكة إلى المدينة حيث موطن الجمال والرحمة، تُنسيه أشواقه ما ينتابه من تعب وإرهاق، وما أن تلوحَ المآذن من بعيد حتى يطير القلب بأجنحة من حنين.

تقف بهم الحافلة أمام مستقرهم، فيسلم حقيبته لأحد مرافقيه، ويسرع متخذًا القبة الخضراء دليلًا، وما أن يصل للروضة حتى ينشد...

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فتلاحقت المشاهد تَتْرَى أمام ناظريه...

«فسافر سيدي أحمد الرفاعي ومعه جم غفير إلى مكة ثم المدينة ووقف عند الروضة وقال: السلام عليك يا جدي، فقال له النبي ﷺ: «وعليك السلام يا ولدي»، فتواجد الرفاعي وقال:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فانشق التابوت ومد النبي يده إلى الرفاعي ليقبلها أمام جمع كبير من الناس يزيدون على التسعين ألفًا وكان من بينهم عبد القادر الجيلاني وعدي بن مسافر وحيوة بن قيس الحراني»

فسبح في بحر الأنوار، وكانت لحظة بعمر، وعمر بلحظة، فأغشي عليه، ولما أفاق انتابته الحُمَّى لا تفارقه إلى حين رجوعه الوطن.

✠

وما كانت الحمى في باطنها إلا شوقًا مستبدًا، لا راحة ولا فكاك من لهيبه المشتعل، ومنذ حادثة الحجرة النبوية المنيرة تبدل حال سيدي السيد العيساوي، فما كان يخرج من خلوته إلا للجامع الكبير لإلقاء بابٍ من مسلم يعقبه بابٌ من البخاري، وكلما قال: «قال سيدي رسول الله ﷺ...»، إلا ولاكت ألسنة لهيب الشوق فؤاده، ففاضت حرارتها، وتهادت جداول عشقه دموعًا تسيل من عينيه، فغلب حال البكاء معظم أيامه وساعاته...

لم يطق سيدي أحمد الصعيدي البقاء في القاهرة فهرع مسرعًا إلى «شمياطس»، لا يبارح شيخه في تنقله أو مستقرِّه، يكاد يذيبه الأسى فقد طال أمد مرض شيخه غير المتوقع...

وها قد تخرج سيدي الشيخ الحسيني في كليته، وجاء تعيينه معلمًا للغة العربية في مدينة الأقصر، فرح سيدي السيد، وأوصاه بصحبة الصالحين... «عليك يا ولدي بالساحة الرضوانية بإسنا الغراء بصالحيها، ولا تنس الفاتحة بروضة سيدي أبي الحجاج الأقصري رضي الله عنه» ثم غلبه البكاء، وبكى المحيطون لبكاء الشيخ. شعر الجميع أن الشيخ يودع ولده الحبيب.

وككل ليالي التوعك المؤلم لازم سيدي أحمد الصعيدي شيخه، وكلما وضع خرقة مبللة بالماء على رأس الشيخ، سرعان ما جفت رطوبتها فيبدلها بأخرى يراوح بين خرقة مبللة وأخرى ملتهبة بالتهاب جبين الشيخ، وحينما لم تخمد الحرارة غلب البكاء سيدي أحمد شفقة وحزنًا على سيده الحبيب، فانتبه الشيخ على نحيبه ...

- يا أحمد صلِّ على من لم تبارحه الحمى شهرًا وعشرًا ...

فمسح دمعه مسرعًا، ونطق بصوت تخنقه العبرات..

- صلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله.
- يا أحمد: هي رحلة لا تتوقف، ولا يملك الراحل حيالها غير الإذعان، حينما نسمع صافرة القطار، ننتفض من مجالسنا، يختلج القلب حينما يعاين بدايات المغيب، ولكن الأمل يحدوه فينسيه اختلاجه، وتغيض دموع الشوق حين معاينة المعشوق، الذي أذاب الفؤاد دهورًا بتمنعه، ويحه كم ملك،

وكم استبد بعلوه، وحضوره الغائب، وغيابه الحاضر، وكلما اقترب ابتعد، وكلما ابتعد اقترب، حار العقل فيه، ولما حار سلم، ولما سلم ذاق، ولما ذاق ذاب، ولما ذاب غاب، ولما غاب فنى... بكلمة تنحدر من سطور اللوح يغشانا الفرح السرمد، حينها تصالحنا الأيام، لنغيب عن الأيام، وتسيل مرارة اللوعة رحيقا، أبدًا نرتشفه، ولا يفرغ الكأس ما دام الكأس، وما دام الساقي...

- ليس بعد يا شيخ، ما زلت في ميعة فتوتك، كيف تطيب الحياة بعدك..
- قلنا لا فراق، مقامي في قلبك، ورحلتك في عيني، أراك الآن هناك في السبيل.
- أي سبيل يا شيخ؟
- هناك عند الحرم الزينبي، هناك وليٌّ عصرِه يتنكر في صورة عسكري...
- من يا شيخ؟
- وِرده الصلاة على النبي، وشيخه النبي...
- أين...؟
- قلنا في السبيل مقامه، ابحث عنه ولازمه....

تزيد الحمى على الشيخ الجليل، ويغشى عليه...يصرخ سيدي أحمد:

- «الطبيب...»

وكان يومًا كدهر، ارتجَّت الشهداء كلها لانتقاله، واستعدت القرية كلها لوداعه، حتى مدارس القرية وأجوارها قد غلقت أبوابها، وهرع تلامذتها ومعلموها ناحية دوار العيساوية وساحتهم الكبرى، يذكرون أيامه، وكيف عانى بعد مجيئه من رحلة الحج حُمى لم تنقطع، منهم من يحكي عن حادثة الحجرة النبوية، وأن نفسه النبيلة الكاملة لم تحتمل وثبة روحه المتقدة عشقًا، منهم من يزيد على الأحداث ما ليس منها، ومنهم من ينقص، ومنهم من يصحح، ومنهم من ألجمته الصدمة فسكت، ومنهم من يكبح جماح دموعه، ومنهم من أطلق عنانها، إلا أن يافعًا نحيلاً أسمر اللون، دقيق القسمات، من طلبة العلم قد انغمس بكليته بقراءة عذبة واضحة لآي القرآن الكريم، يكفكف دموعه من آن لآخر، هو سعيد سليم، من شباب البندارية المبشرين، وأخلص أبناء جيله لتراثها وأورادها، يقرأ كل ما يصادفه بنهمٍ لكل ورقة قد سطر بها حرف... ليظهر الجثمان محمولا خارجا من المندرة لمستقره، حيث يجاور إخوانه وأحبابه البندارية حيث خلوتهم؛ خلوة الحاج حلمي طولان البكري، حيث يرقد وخادم المقام سيدي محمد البسيوني، وسيدي محمود أبو جمالة، وكان آخرهم لحاقًا سيدي السيد العيسوي، وبجوارهم خلوة سيدي السيد العيساوي الكبير...ليجتمع الخمسة الأوائل حيث بشرهم شيخهم سيدي محمود البنداري بالرفقة في الدنيا والبرزخ والآخرة...

لم يتكلم الشيخ أحمد الصعيدي كلمة، كانت دموعه تترجم ما يزاحم قلبه من آلام ...

حمل آلامه على عاتقه وانصرف في صمت لا يلوي على شيء، ولا يلتفت لشيء، كل صور الدنيا وعلامات الطريق المسرعة الملوحة له بنافذة قطاره كانت صورة شيخه، كل كلمة من مجاوريه، كل نداءٍ عابر، كل ضحكة مسافر، كل بكاء طفل لم يكن غير صوت شيخه، ينزل من قطاره لا يدري أين يذهب، لا يعلم وجهة، سقطت كل العناوين من ذاكرته، استوت الأماكن في منظرها الكالح العابس، استحال الفراق نارًا تلتهم فؤاده المكلوم، إلى أين؟ أخذ البهجة والأنس وذهب، وهل سترفق به الساعات كرفقه، ومن يحتضن فؤاده بعده ومن يربت على كاهله إثر كل صدمة وضربة تسددها غارات الدنيا...

يسير ويسير على قدمه يتجاوز المحطات وبجوار الجامع الزينبي يلوح له من بعيد السبيل الأثري، لم تقع عيناه عليه إلا الآن وكأنه نبت من الغيب، ومع مرور القرون الطويلة على جدرانه ونوافذه وعتباته، كأنه ولد بعينيه لتوه... يتجاوز عتبته العتيقة، وحضرة متسعة مكتملة إلا فسحة قد خلت، وكأنها تنتظر من يجالسها، وإذا بالشيخ يناديه ...

- يا أحمد... قد انتظرناك كثيراً.

ويعطي إشارة البدء...وتتلى الصلوات ترددها أنفاس أرقها العشق...

«الصَّلاةُ والسَّلامُ عليكَ يا سيّدى يا رَسولَ اللهِ. يا نَبيَّ اللهِ. يا عبدَ الله. وكفاكَ شَرفاً أن تكونَ عَبداً لِله. الصَّلاةُ والسّلامُ عليكَ يا أمانَ الدَنيا ومَلاذَ أهلِها، يا حِصْنَ الأمةِ ومَعقِدَ رَجائِها. يا رَحمةَ الإنسانيةِ وكعبَةَ آمالِها. الصّلاةُ والسّلامُ عليكَ أيها النّبيُّ الرؤوف الرّحيمُ العَطوف، يا مَن يَتوسّلُ بكَ إلى الله تعالَى كلُّ مُستغيثٍ ومَلهوف. وهَآنَذا يا رَسُولَ اللهِ مُستغيثٌ ومَلهوف. أَنتَ لها إذا نَزلَ البلاءُ واشتَدَّ العنَاءُ، أنتَ لَها عِندَ المُلِمَّاتِ واشتِدادِ الأزَماتِ، أنتَ لَها عِنَد احتدامِ الكُرُباتِ وانسِدادِ أبوابِ الفَرَجِ مِن كُلِّ الجِهات. (أنتَ وَسيلَتي قَلَّت حِيلَتي، أدرِكني يا نبيَّ اللهِ. أنتَ وَسيلَتي قَلَّت حِيلَتي، أدرِكني يا نبيَّ اللهِ. أنتَ وَسيلَتي قَلَّت حِيلَتي، أدرِكني يا نبيَّ اللهِ). عليكَ يا سَيّدى يا رسولَ اللهِ مِن صَلواتِ اللهِ وتَسْليماتِهِ وتحِيَّاتِه وبَركاتِهِ في كُلّ لَحظةٍ ما يُناسبُ قدرَكَ العظيمَ، ويَليقُ بِمقامِكَ الكريمِ، ويَجمعُ لك أَعْلى دَرجاتِ الفَضلِ والتكريمِ، وأقصَى غاياتِ القُربِ والتعظيمِ، وعلى آلكَ وأصحابِكَ وأزواجِكَ وذُرّيتَكَ وأمَّتِك أكملُ الصلاةِ وأتمّ التسليم»[1]

[1] (أنوار الحق للشيخ عبد المقصود سالم 102): أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق سيدنا ومولانا محمد ﷺ

13

سهرا طوال الليل على عادتهما في ليلة رؤية الشهر المبارك رمضان، فبعد إعلان الشهر، ترتدي المآذن والقباب حلتها من الأنوار الملونة الزاهية، وترتدُّ الجمالية، وفي القلب منها حي الحسين، إلى صباها وشبابها الريان، لترتفع الزينات بكل حارة، وتعلو الضحكات والتهاني، ويتقافز الصبيان والبنات بفوانيسهم ذات النوافذ والشموع، تعلو حناجرهم بأصواتهم الغضة، ينشدون أهازيجهم المرحة، وتخرج عربات الفول من مخادعها، ترسم أبخرته ذكرياتها بدفء رفقة المستوقدات القاهرية الساهرة، وتتسابق الدرجات ثلاثية العجلات بصناديقها حاملة اللبن الزبادي، وحلوى رمضان الشهية من مهلبية، وأرز بلبن محلى بعسل النحل، وتتهادى السيدات والفتيات حاملات أقفاصهن صوب الأفران ملبيات نداء الخبز الشهي الساخن فالليلة أول سحور...

جلسا يشربان القرفة المخلوطة بالزنجبيل والحليب، يتنسمان أنفاس الليلة المباركة، يرتشف الشيخ رشفة من مشروبه الساخن، ويرجع الكوب مسرعا إلى صفحته، متمتما بتسبيحات، ويلهج من الحين والحين بالصلاة على النبي، وولده محمود الصعيدي لا تفارق ابتسامة

الوداعة المرحبة وجهه النحيل الوسيم الطيب، لا يمر عابر أو قاصد للقهوة إلا وألقى السلام والتهاني على الشيخ أحمد الصعيدي، ليتزاحم المجاذيب والمنقطعون على الشيخ يجود عليهم بابتساماته، ونفحاته المباركة، وكما كان تَزَاحُمُهم بدون مقدمات، كان انصرافهم بدون مبشرات، هذا هو شأنهم معه يقدمون وينصرفون بغتة من غير نذير أو تمهيد...

لينتبه الشيخ لكوبه الذي فقد سخونته، ولما يفرغ إلا من أقل قليله، لينظر الابن إلى وجه أبيه ويضحك...

- ليست المرة الأولى، ولن تفرغ أبدًا من كوبك قبل...

يقاطعه الشيخ ضاحكًا مداعبًا...

- وفي كل مرة يفرغ كوبك قبل كوبي... (ثم يكتسي وجه الشيخ بجديته)
- راضي يا محمود...؟!
- راضٍ يا أبي...ليس في قلبي غير الرضا، جنة الله في الأرض الرضا، آوى إليها آدم وزوجه حين هبطا الأرض وكادت تفيض نفسيهما ندمًا وأسفًا على ما فرطا، فأخرجهما من جنة وأدخلهما جنة...
- أخشى يا ولدي أن أكون قد قصرت في حقك...

- وهل يحمل القدر إلا كل الخير، فليس لفعلك فعل، غير أنه، مجازًا، ينسب لك... حتى الكسر المتتابع، والمرض في باطنهما الجبر والعافية، هي منح الله يا أبي...أأسر لك بسر؟

يتهلل وجه الشيخ سعادة وراحة...

- نعم يا حبيبي...أي سر؟
- في لجج المرض، لم أشعر يومًا بألم...وحينما كنت طفلاً صغيرًا كانوا دائمًا يأتون لمداعبتي ومؤانستي...
- من؟
- هم.... ألا تعرفهم؟ أهل القربي، كانوا يقولون: «انشغل أبوك بمودتنا، فانشغلنا بك يا صغير الحبيب».

كفكف دمعة أفلتت سريعًا، وانحدرت على وجنته...

- بالله يا محمود؟
- هم أهل الكرم يا أبي.
- نعم، صدقت...
- والرضا يا أبي لا يكون بغير المحبة، والمحبة للعدو والمنكر، قبل الصديق والمصدق، المحبة يا أبي هي السر الساري، ومدد الله الجاري، والقلوب أوعية السر، والسر المحبة...وكلما تذكرت أهل البلاء، أحاطوا بي، كل يشكو ويتوجع، ولا ينوء كاهلي بما أحمل عنهم، ليزداد أنسي أنسًا...

- وحينما اكتشفت ما حل بك يا ولدي، كانت مصيبتي بانتقال شيخي، فتكالبت الأحزان، وكلنا يحزن، فالحزن زكاة القلوب... نمتُ مثقلاً، لا أدري كيف أغمض عيني، ولا أدري كيف وجدت تلك الورقة في يدي، هل كانت رؤيا أم يقظة، الله وحده يعلم، فتحتها فإذا قول الله مسطورًا: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

وإذا بأمك تسلمني ما ادخَرَتْه مما فاض من الرزق وتقول لي: «آن أوان الحج فحج»

ليقطع حديثهما أحد الأحباب حاملًا أطباق الفول والسلاطة والمخلل، وسلطانيتين من الزبادي...

- أخذكما الحديث يا مشايخ... السحور وجب...

لتملأ بسمة الوداعة وجه محمود، ويناوله الشيخ رغيفًا قد امتلأ دفئًا كبسمته...

✠

كان سيدي محمود الصعيدي قد بلغ الشباب متوكئًا على الابتلاء رفيقًا، كان قد قضى معظم عمره أسير جبائر الجبس، وكلما جبر، كسر، كانت عظامه من نوع نادر، يطلق عليه العظم الزجاجي، هش، رقيق، فكان كلما لعب مع أقرانه الأطفال إبان طفولته، دفعه أحدهم

على عادتهم في اللعب، فوقع فكسر، فيحمله سيدي أحمد الصعيدي لأقرب مشفى ليجبر، وبالرغم من تمزق قلب الشيخ شفقة، إلا أنه كان يعده بابًا من أبواب رحمة ربه، ومعراجًا يعرج به المقامات السامية، ونافذة خلالها يشاهد رحمات ربه.

كان دومًا يرافقه لأعتاب آل البيت الطيبة، فعُرف وسط الطرق ومشايخها وسالكيها ومجاذيبها، عُرف درويشًا تنضح السعادة من محياه، وكان رقيقًا رقة عظامه، تداعبه النسائم مداعبتها الياسمين في أكمامها، فيفوح الطيب من جنباته، نحيل الجسد، مستقيم الأنف، عريض الجبين، سهل الوجنتين، لا تراه إلا ضاحكًا أو مبتسمًا، كان قرة عين أبيه، بشرى ربه لأبيه، نفحة الأيام الماضية والمقبلة.

وفي نهاية الحضرات مذ استطاع السير، كان الشيخ يكلفه بتوزيع قطع الحلوى على المريدين.

يستيقظ بهدأة السحر، مستغرقًا بأوراده، وصلواته، وركعاته، ودعائه للقاصي والداني...

وحين لا يفصله عن الفجر غير ساعة يوقظ الأسرة جميعها للذكر والصلاة، ويدخل على أبيه في خلوته يشاركه الذكر حتى آذان الفجر.

وحين بلغ مبلغ الرجال أصر على العمل والكدح، وحين حاول أبوه الشيخ منعه قال:

- نصيبي من ميراث أبي آدم...

ليقع بالشغف به كل رفاقه العمال وأرباب العمل، كان اليوم الذي ينقطع فيه لسبب أو لآخر يوم حزن وكدر، ولا يكاد اليوم ينتهي حتى يتجمع الرفاق جميعا لزيارته، فلم ينقطع وروده المشفى لسبب أو لآخر فكان مع رقة عظامه، كثير الاعتلال والمرض...

▩

خرج من عمله وقد أنهكه الصوم بشدة في يوم من أيام رمضان الطويلة القائظة، ليؤذن المغرب بمنتصف الطريق أخيرًا، وبين مئات آلاف الخطوات المتعجلة المسرعة نحو غايتها، تحول خطوه نحو محل للمرطبات ليشرب كوبًا مثلجًا من عصير القصب يروي به غلته، ويستعيد بعذوبته ريه المفتقد من أثر الصوم الطويل، والجهد المبذول طيلة النهار.

وما أن يصل البيت المتحلق حول مائدة الافطار منتظرًا قدومه حتى تدهمه موجة حمى شديدة، يفقد على إثرها قواه وطاقته، ولعلم الشيخ بحالته الواهنة، يلقي مسرعًا ما بيده من طعام، لم يرد الشيخ ضياع ثانية، لتيقنه من مغبة الانتظار، وإهدار الوقت.

أراد السير معه للمشفى، ولكن محمود كان قد فقد كل طاقته، وقدرته على السير، خرج يبحث عما ينقله، ولكن الوقت وقت إفطار، ليخيم السكون على كل ما يحيط به...

بحث بنواظره عن سيارة لنقلهما فلم يجد، فنذر الشيخ إن مَنَّ الله عليه بما ينقله أن يشتري سيارة، يقودها متجولاً بأوقات السكون لإغاثة ملهوف، أو مكروب مثله انقطع به الطريق، واستبدت به الحاجة... ليشق سكون الطريق أزيز محرك لسيارة تقترب، سيارة مألوفة خيل إليه أنه رآها من قبل، تقف حياله تقودها سيدة مألوفة أيضًا، خيل إليه أنه قد رآها من قبل، يعتصر ذاكرته، فيذكرها، إنها السيدة التي أقلته مرته الأولى وقت نزوله القاهرة نحو النفيسة، لتتقدم فتخترق الحجب، والمقام، وتسكن حيث سكنت...

هي.. هي..

وقبل أن يتكلم أشارت إليه، أن أسرع، ...

- فلتأت بمحمود... قد حان الوقت...

وقبل أن يعاون الشيخ، والأخوة أخيهم لحمله نحو السيارة، إذا بمحمود يحدثهم بصوت واهن:

- قد ارهقتكم طيلة حياتي، واثقلت عليكم... سامحوني...

ليتك تثقل أعوامًا ودهورًا يا محمود، وظهري لك مركب، وعيني لك مرفأ...

علم الشيخ وعلموا أنها ليست ككل مرة مرت، وتتحرك السيارة تقودها السيدة، بجوارها الشيخ، ليستلقي محمود على المقعد الخلفي، يشترك مع الأحياء فقط باختلاج أنفاسه تناضل من أجل بقاء لحين.

تهيمن غلالات الضباب المنسكب على الكون، المتطاير، على المدى البعيد، يحجب بسطوته كل ما هو كائن يدب برجليه على الأرض، أو يمتد بجذوره لأعماقها البعيدة، ينحدر حبات من لؤلؤ عذب، يغسل أوراق الشجر، أو يتجمد على واهي النبات وضعيفه، لتستنجد بأمها الشمس، لتصرع شعاعها الأول جحافله المغترة بلانهائيتها فيصرخ شهيدًا مُضرجًا في أنواره السائلة سناء وسناء، ترسل الشمس شعاعًا وأخر وثالث، على صهوة جياد ذهبية مجنحة، ليفر الضباب مُنحسرًا عن الكون ليضيء بنور ربه، فيمنح الدفء والحياة، لتنفض الأشجار -متثائبة- ما تراكم عليها من قطرات، ويبتسم النبات المتجمد مُعانقًا ما أرسلته الشمس من ضياء، وتظهر من بعيد شواهد مدينة الموتى المحاطة بأشجار الصبار متفاوت الحجم والنوع، والياسمين، والورد، والفل المتسلق شواهد القبور مواسيًا، وبجوار قبر يتحرك -ببطء- رأسٌ..... يرتَد للخلف كرد فعل ليدها المكفكِفة من آن لآخر دمعة عين منحدرة تسابق أخرى، تجلس متشحة بحدادها، هي مذ سكن ابنها محمود الصعيدي برزخه لا تنتقل من جواره إلا ساعة الغروب، وتبكر مع أول شعاع شمس؛ وكان الشيخ أحمد قد ذهب لمزاولة عمله بالقاهرة، ليقدم على أوقات متقاربة «شمياطس»، حيث وارى ثراها ولده الحبيب، وجدران دورها زوجته الحبيبة أم سليمان، وحزن الرجال يختلف عن حزن النساء ويفترق، فبينما يجثم على قلوب

الأمهات الثكالى لا يفارقهن، يغزو قلوب الرجال كتائب إثر الأخرى، ينتصر فيظهر حِينًا فيحني الظهر ويمتزج بدم القلب، وعبرات الجفن، ويُهزَم تارة فيتوارى كفيروس ماكر بين مشاغل حياة الرجال، وتفاصيلها الكثيرة، ولكنه يعلم أنه عائد لامحالة.

الأم الثكلى تشعر المرة بآلام مختلفة عما اعتادته، كم وهن جسدها! وكم ناء كاهلها بأحزان الثكل والفقد! ومع قلة اعتنائها بصحتها، وندرة ما تطعمه من قوت، يُغْشَى عليها نازفة أمام قبر ولدها، ومع مرور الفلاحات مخترقات مدينة الموتى، بجرارهن قاصدة مياه ترعة الباجورية العذبة على تخوم القرية النائية، تصرخ إحداهن لرؤية أم سليمان ملقاة أمام القبر، ينساب النزف مشكلًا جدولًا صغيرًا، تزداد بقعته رويدًا، رويدًا...

يُلْقِينَ جراراهن، ويتآزرن حاملات أم سليمان لدارها، ويسرع أحد أعمام الشيخ راكبًا حماره نحو الشهداء، مستدعيًا من أطبائها، والذي يقرر بعد فحص أولي أنها بوادر حمى النفاس إثر إجهاض لحمل في شهوره الأولى، نسيت فيما نسيته علامات الحمل المعتادة، المألوفة لدى النساء، ويقرر ضرورة الإسراع بحملها للمشفى، لخطورة حالها.

وما أن يصل الشيخ أحمد الصعيدي منزله بالقاهرة، لينال قسطًا من الراحة بعد صباح من التجوال بسيارته «الرينو» التاكسي الجديدة، ليعاجله جاره الوحيد الذي يملك هاتفًا، مخبرًا أن عمه قد هاتفه

وأخبره بضرورة مجيئه على نحو عاجل القرية، ولمَّا يخبره عن السبب، ليحول الشيخ أحمد وجهته ويقود مسرعًا نحو «شمياطس».

تدهمه الأخبار الدامية، لا تترك له فسحة زمن للتفكير فيما حدث، وكيفية حدوثه، حامل وقد سقط حملها، وغيبوبة، وحمى نفاس، وفقد جديد، يقولون عن النفساء المحمومة أنها مقضِيٌّ عليها لا محالة...

تتسارع المشاهد أمام عينيه الغائمة، لا يدري كيف يقود سيارته المسرعة، وكيف تسير الأيام على منوالها الذي لا يمل تسديد الضربة إثر اللكمة إثر الصفعة...

احتلت مشاهد الموت كل مساحات ذاكرته...هذا الصف الطويل من الأحباء الراحلين الوالد الشاب سليمان، والشيخ الشاب السيد العيساوي، وقرة العين الراحلة في صباها محمود...هل تلحق بهم الرفيقة الحنون الطيبة؟! آه... ألا تملين يا أيام من تسديد سهامك؟!!

ما أن تلوح بناية مشفى الشهداء، حتى تنهمر دموع الشيخ، يسرع من سيارته، متخطيًا بوابته الرئيسية حتى يسمع صراخًا يعرف صوت صاحبته جيدًا، إنه صوت ابنته أمل، يلهث عدوًا نحو مصدر الصوت ليقوده نحو عنبر السيدات، تحاول الممرضات جذب أمل بعيدًا عن الجسد المسجى... وما أن ترى أمل أباها حتى تصرخ صرخة استنجاد وشكوى وإعلام بالخبر الذي لا يعوزه إعلام...

يجتمع للصرخة كل نزلاء المشفى... ليحتضن الشيخ ابنته، تتوكأ عليه، وبخطو متردد، ويد مرتعشة يكشف الشيخ عن وجه أم سليمان، لتتسارع الذكريات...

خطبتها وزفافه... أين الحشية القطنية يا أحمد؟ ... يا جدي؟!... استعارها أحد المرضي يا ولدي... تلوح ابتسامة الرضا على وجهها الطيب...وقبل أن ينطق زوجها الشاب تنطق العروس الشابة: «رضينا...»، القاهرة... أيام الشدة... وحينما يصرعه المرض تقوم هي بتوزيع اللبن... خذ يا أحمد قد ادخرت لك تكاليف الحج...

لينكب الشيخ على جسد زوجته الساكن هذا السكون الذي لا رجعة لحركته... مُقَبِّلًا كل جزء يطوله... ينسكب دمعه الغزير على وجهها الضاحك المستبشر المطمئن... ويصرخ الشيخ...

- إلى أين يا رفيقة العمر... يا كسرة الظهر بعدك يا حبيبة... يا نهاية الحياة بعدك...

يتزاحم أعمامه، وإخوانه، وأبناءه كل يقوم بما يجب القيام به في تلك الساعات الحزينة...

والشيخ في حال من الوجوم والذهول عن كل ما حوله... وحينما يفرغون من تجهيز الحبيبة والزوجة، والرفيقة، وأم ولده... حينما يظهر جسدها الطاهر الصابر ملفوفًا في أكفانه البيضاء محمولًا ليستقر بمركبه الفاغر فاه المنتظر المتأهب...

يشق بكاء الشيخ وصراخه وجوم وصمت الدنيا... لا يدري كيف تطاوعه قدماه على المسير مودعًا إياها نحو غايتها الأخيرة، ليتهادى مستندًا على كتفين يكادان يحملانه حملًا...

قال الشيخ لما فرغ من حكايته:

- «ولكل ولي شبه بحال أيام النبي، فيستلم ميراثه تارة مما قاسى من إنكار المقربين، وتارة من شظف العيش وضيقه، وتارة من فقد الأحبة من زوج وولد...»

✠

وحين استوى الفتى، رقيق القسمات، دافئ السمرة، بهيَّ الوجه والخلقة، دائم الابتسامة والبشر حتى في أصعب المواقف، وأشدها، يشع طمأنينة وسعادة يبثهما في كل من جالسه أو اجتمع به استبدت به رغبته الجامحة للمعرفة، كما استبد به العشق من قبل، وفي البداية كانت صحبته للأكابر يرتشف من علومهم، وينشأ تحت أعينهم ليتعلم من لحظهم قبل لفظهم، تعلم القرآن وأصول تجويده على يد الشيخ فايد، ربيب سيدي الولي أبي جمالة، وصفيه. ثم تخرج في قسم اللغة العربية، ليعين معلمًا للعربية، كان الشيخ سعيد سليم...

- أتذكر هذا الاسم؟!
- حسنًا جدًا... أهنئك على تلك الذاكرة الجيدة غير الملتبسة على غزارة الأحداث وكثرة الشخوص.

- نعم... هو هذا الفتى الذي استغرق بكليته قارئًا للقرآن يوم انتقال ولي الله السيد العيساوي..

وعلى ضعف بنيته ورقة جسده كان فولاذي الإرادة والتصميم، صاحبه الشيخ الشاب الأستاذ حسين جلال حفيد الشيخ ولي الله محمود أبي جمالة، والمتخرج في قسم الجغرافيا والمعين معلمًا في معهد الشهداء الأزهري الثانوي... كلما نزل الشيخ أحمد الصعيدي إلى البلدة اجتمعا به وارتشفا من جمال رحمته وجلال معرفته، كان الشيخ لا يبارحهم طيلة إقامته ولا يبارحونه... تطول بهم المناقشات والقراءات لكتب أصول التصوف خاصة «الرسالة القشيرية»، و«الإحياء» للإمام الغزالي، أمدهم الشيخ بـ«أنوار الحق» لشيخه الجليل سيدي عبد المقصود سالم، وأوصاهم بقراءتها قبل الشروع في حضرتهم البندارية...

وحين يغيب الشيخ يبادر الشابان، سعيد سليم وحسين جلال، لزيارته بالقاهرة، والإقامة بمنزله وسط أولاد الشيخ ومريديه... يصحبهم في زيارات حميمةٍ لمقامات آل البيت مُعرفًا إياهم برجال الله، وخاصته، وأوليائه ...

تتآزر معارف الشابين المباركين، وتتكامل جهودهما، ليتميز الشيخ حسين جلال بحنجرة ذهبية ورثها عن أسلافه الطيبين، فذاع صيته كمنشد لا يشق له غبار، يأخذك على أجنحة الشجن المنغم لضفاف العشق، ويصاحبك راحلًا في بحاره.

ويتميز الشيخ سعيد بدروسه، وخطبه الرشيقة الجامعة بين تأصيل العلم ورصانته، وتذوق المحب ووجده...

وكلاهما يصبحان من أعلام البلدة وأجوارها ومن أهم مصادر الفتوى، وتعليم الناس الخير...

وبمرور الأيام وبصدق النوايا وإخلاصها يحيط بهم شباب القرية بل، وبعض شيوخها ليمثلوا جيلًا جديدًا من أجيال البندارية الأحمدية.

14

وبخدمة سيدي أحمد الصعيدي بجوار جامع البهي برجبية سيدي أحمد البدوي، تحلق الأحباب جميعهم وقد هاموا بإنشاد يصدح به الشيخ، وهم يرددون مَقَطَّعًا منه بين الحين والآخر...

ليست الوجوه بغريبة عليكم تعرفون معظمهم، وكان على رأسهم الشيخ عبد الحليم طولان، والشيخ سعيد سليم، والشيخ حسين جلال، وغيرهم الكثير...

وحينما فرغوا ظهر فجأة، وكأنما نبت لحينه من طيات الأرض يلبس جلبابًا غير مهندم ولكنه نظيف، وطاقية بيضاء ونظارة طبية مستديرة العدسات، ومع ضعف بنيته ونحوله كان مشرق الوجه، منير الطلعة، ولما وقعت عين سيدي أحمد الصعيدي عليه استبشر به لسبب لا يعلمه أحد، فالرجل غريبٌ عنهم، لا يعرفه أحد، والشيخ نفسه لم يسبقهم لمعرفته من قبل.

فقام الشيخ وأوسع له المجلس، وأجلسه بجواره...

- كنت أبحث عنك من زمن بعيد؟
- وأنا كنت أنتظرك من زمن ليس بالقصير...

- خشيت أن يفرغ العمر دون مقابلتك ولو مرة...
ومع كل دورة زمن كنت أمر من هنا، ولكني لم أسعد بحضرتك ولو مرة، حتى حان الوقت أَخِيرًا..."

شرع الضيف بالحديث، بعد أن استغرق المجلس في صمته المتأهب لسماعه، حدثهم بما كان وسيكون، بظاهر الشرع مستشهدًا بالآية القرآنية، رابطًا بينها وبين حديث يحرص على ذكر سنده كاملًا، ثم يشرع في تخريجه، والحكم على درجته، ثم يربط ذلك كله بأحوال العباد، وأفعالهم، ثم إشارات لطيفة لما خفي عن الأنظار والأفهام...

فجال بخاطر الشيخ عبد الحليم طولان... (وماذا عليهم لو استعانوا بأمثال أولئك الأفذاذ في الإذاعة والتلفزيون لتعميم الاستفادة منهم) كان مجرد خاطر لم يحدث الشيخ عبد الحليم به غير نفسه، فنظر إليه الوافد الغريب، وخاطبه بعامية:

- بقي عايز تفرج عليّ الخلق؟!

فهبت الشيخ عبد الحليم طولان وخاطبه محرجًا:

- أبدًا... أبدًا يا عم الشيخ...

ليبتسم الشيخ أحمد الصعيدي ابتسامة العارف بما حدث.

وحينما لاحظ الوافد استغراق المحيطين به، وانبهارهم بحديثه، تلعثم مخبرًا إياهم...

- آ... آ... آ... عندي بنت اسمها فاطمة بتحفظ القرآن في الأزهر...

ثم ابتسم وغاب عن الحديث وصمت...

ليمر أحد الباعة بصندوقه الزجاجي، ومحتوياته من البسبوسة والهريسة وغيرها، فأمره الشيخ أحمد أن يمر على كل من في الخيمة مُوزعًا عليهم منها... ولما وصل للوافد لم يمد يده، فأخذ الشيخ قطعة هريسة وأعطاها له، فتحرج الوافد، وأخذها بيده بدون أن يأكلها، أو تزايله تلك الابتسامة الخجولة...

انشغل القوم بتناول ما بيدهم من الحلوى، وحينما بحثت الأنظار عن الوافد لم تجده وكأنه تبخر في الهواء، أو ابتلعته الأرض، وسط دهشة الجميع... وحين تساءل الجميع بادرهم الشيخ قَائِلًا:

- الحمد لله أن أذن لنا الله برؤية أحد أبدال الأرض...

فكبر الجميع، وحمد الله، وأثنى عليه...

لينعقد مجلس العلم، ويبدأ الشيخ سعيد بقراءة كتاب «الإحياء» ويقوم الشيخ أحمد بالتعليق على ما شاء من فقرات، بما حمله من غزير علمٍ ورثه عن سيدي السيد العيساوي، ويتناقش الأحباب بإضافة تعليق أو استفسار...

ثم تقام حلقة الذكر... فينتظم الجميع في صفوف يحرص الشيخ على اعتدالها وتوافق حركاتها، فتراه يتجول بين الصفوف ملاحظًا ومنظمًا.

وبفراغ حلقة الذكر توزع الموائد ليتناول الجميع طعام العشاء... ليجاور الشيخ أحد أقربائه ويهمس للشيخ:

- أما آن للشيخ أن يتزوج؟
- وهل تجد من عروس يا فالح؟
- نعم، بنت أحد أقربائي من كفر الجمالة العامرة بأحبابكم من البندارية...

-وما ظروفها؟

- هي أيِّم عاقر، طيبة ابنة أسرة كريمة... تقوم بشؤونك ورعاية أبنائك... يشهد لها الجميع بحسن الخلق، وإحكام التدبير حتى أنها توزع الحمامة على اثني عشر...

ليضحك الشيخ متعجبًا:

- حمامة على اثني عشر؟! إلهي يحرق قلبك...

❋

تخفتُ نفسه قرحة ملتهبة، يسكن أنينها فيحسب أنه قد برأت آلامه، ومع رهيف نسيم يلمسها حتى تستعر جمراتٌ تذيب كل سكينة ويقين، ويعجب كيف لنسيم يثير كل ذلك، ويغفل أنه ترويح للمعافى لا للسقيم، فانزوى يطلب شفاء لنفسه المشتعلة، يكبح عبرات تذيب كل ما أصاب روحه من سكون كان، في ركن قصي من خدمة سيدي أحمد

الصعيدي بالمولد الرجبي البدوي يلعق جراح نفسه الملتهبة بلا قدرة على كبح جماح أنينها، يسائل نفسه لم يغلق الطريق في وجهه دائما، وتسقط عناوين سكينته من ذاكرته، ينسى حروف ورده، يتهته كطفل ببدايات نطقه، يدور على الأبواب كغريب نبذه وطنه، كطريد تتعقبه كل ذئاب الدروب الممتدة الباردة، متلهفة على شربة من دم قلبه الذائب حنينًا لعناوينه التي كانت، يرثى لرحيل الأحبة، ولا يرحمه العاذلون من لومهم، وضحكات استهزاء، كطعنات خنجر قد سال سُمًا، وهل يولد من غدٍ غير الوجع، والتعيير والملامة!

ليظهر له الشيخ أحمد الصعيدي بوسط الحضرة جالسًا، يفيض حنانًا ومحبة، يفتح ذراعيه... ليتدثر باكيًا بحضنه... يشكو ويشكو من قسوة الأحباب وهجرهم... ومع عبرةٍ يربت الشيخ على كاهله المنهك، يحمل عنه ثقله المرهق...

- أتبكي بحضرتنا؟!
- لا قبل لي بما استبد من ألم...
- ألمك غرضك يا حبيبي، فمتى تبرأ؟
- ولكني كلما لاح لي الطريق أغلقت بوجهي الأبواب...
- تغلقها نفسك القلقة يا مريدي...أراك في أحلامك ممزقًا بين غايتين دائمًا؛ فمتى تلزم الباب بغاية واحدة؟
- كيف؟
- فلتلق غرضك وراء ظهرك وتتبعني...
- ما زال لي غرض يا شيخ...

- غرضك هلكتك...
- ومتى أصل للباب...
- لا وصول إلا بقبر نفسك...
- وكيف تموت؟
- كف عن الالتفات، وانتظرني... ولا تتعجل ...
- ولكن الطريق طويلة جدًا، وعلاماته قد طمست، والوحشة تقتلني، والتفاتي حنيني، وحنيني التفات...
- قلت لك لا تلتفت وانتظرني... لا بكاء ولا ألم بحضرة أبي الفرحات البدوي ...
- لي غرض يا شيخ؟
- فلتلق غرضك وراء ظهرك واتبعني...

أخذه من يده لروضة السيد وماتت الحروف.....

وحينما تزوج الشيخ لامه أحد أقربائه، كيف يتزوج وينسى من حملته في شدته وفقره، فنظر له الشيخ متعجبًا، وسائله مستنكرًا، لا تزايله بسمته الرقيقة الحانية، أتلومني على اتباع سنة حبيبي النبي؟ فلتغضب أو ترضى، فحبي ووفائي لا يبارحني، وإني والله لأجد عطر زوجتي المنتقلة بكل مكان في بيتي، تباركني وتبارك زوجي ...

ومع الصباح يأتي قريبه مهرولا...

- أبشر يا شيخ...
- بشرك الله، ما وراءك؟ وما الذي غير وجهك؟

- رأيتك بالرؤية الليلة تحمل رضيعين؟! فلما سألتك قلت إنهما ولداك من زوجك الجديد ...

فضحك الشيخ ...

- كيف وهي بعد عاقر؟!
- أتعجب من قدرة الله؟!
- حاشا لله ...

ثم سمعت مناديًا يقول: «أحدهما ولي، والآخر نجي» فأبشر يا شيخ، فاستوقفه الشيخ وأدخله البيت وأمر بطعام، وجاء بعباءته الصوف، وألبسه إياها.

- بشرك الله كما بشرتني، وتقبل مني تلك العباءة جزاء بشراك.

لم يعبس الشيخ يومًا بوجه أحد، كان عطاءً كبحر لا ينقطع جوده، إلا أن زوجته الجديدة كانت تعاني كثيرًا من ضيق بصدرها، فلا تلتقط نفسها إلا بشق الأنفس، فكان لا ينفك عن زيارة كبار أطباء الصدر، يطلب الشفاء من الله وحده، ويذوب صدره شفقة على زوجته الشابة المريضة...

وحينما بشره المبشر كان بين منكر ومصدق، إلا أن شيمته كانت جبر الخاطر، والنصيحة الرقيقة، والبسمة الدافئة، والعطاء الغير منقطع. كان أدبًا ورقة تمشي بدنيا البشر إلى حين.

وحينما وضعت حملها، اسماه على اسم أخيه الراحل: «محمود»، وبعد عام حملت حملها الآخر فاختار له: «مصطفى» اسمًا.

وتمر السنون، ويشب محمد بجسد معتل، ومرض لا يفارقه، يعمل موظفًا بأحد المحاكم، وتتسارع خطواته بالحياة ليرحل سريعا...

وكذا الابنة سناء تسارع بخطواتها لتلحق بأخيها...

والشيخ يشاهد الأقدار تنساب، لم يعد غير الرضا سندًا وصديقًا وحبيبًا، ليستوي العطاء لديه والسلب، لم يعد ليطرب بمدح أو يشقى بذم.

ينتقل الشيخ من القاهرة عام ١٩٩٧ ليسكن قريته الأولى، يلتئم جمع الشتات أخيرًا... شباب البندارية من أنشئ على عينيه، وما بقي من شيوخهم ممن رافقه رحلته.

لترى مندرة آل الصعيدي بـ «شمياطس» من أنوار المحبة ما يذكر قديمًا بمندرة العيساوي: ذكرٌ، وضيافة، ومجالس علم، وسمر..

ويأتي العام ٢٠٠٧....

يبحث الشيخ بكل مكان بالقرية طيلة نهار ذلك اليوم عمَّا يقتنيه من هررة، يحيره اختفائهم الملغز المفاجئ، ولكنه لم يفلح في العثور عليهم.

وفي المساء يجتمع الأحباب على عادتهم حول أذكارهم ليطول السهر بالشيخ، تحدث كما لم يتحدث من قبل... وعلى مائدة العشاء تكلم عن شهودٍ عشر، يشهدون له عما وقر بقلوب أحبابه حتى وإن أنكره الأغيار... أوصاهم بالصبر على العهد، ولما أشفق عليهم من طول السهر ودعهم ولم يفتر طيلة ليلته بين صلاة وذكر...

ليحضر الأحباب الراحلون جميعهم ويهيمون بفرح اللقاء...

- أبوكم لم يرد طيلة الليلة على الهاتف الذي لم ينقطع عن الرنين.

ليدخل محمود على أبيه خلوته فيراه مستندًا، يحيه بتحية الصباح، ولا مجيب، يقترب متوجسا يتحسس أبيه ليكتشف أنه قد أنهى رحلته أخيرًا ووصل لمستقره المبتغى...

تعلم عدم الجزع من كثرة ما رأى.

وبرباطة جأش يتم وإخوانه اليوم... وتمر السنون العشر...

ليهل العام٢٠١٧ ويبحث الأحباب عن مستقرهم بمولد السيد الرجبي فلا يجدونه، ليقيموا طوال ليلتهم على التجوال حتى يلوح الفجر

بالقرب من ضريح البدوي، ويلهم الجميع الأمر بتجديد العهد البنداري الأحمدي، ويعاهد الشيخ محمود شيخًا للطريق خلفًا لأبيه بعد عشر سنين من رحيله وبعدما شهدت العشر سنوات للمنتقل.

✠

يخطو مجتازًا أسوارها العالية، قد مرت ليلته وأشرقت شمس اليوم مرحبة... وكأن لم ينصب يومًا ولم يمسه شقاء ولا حزن... نسي بعدما شاهد سطور ما قرأ ما كان يجذبه لأوهام الحياة وبريقها الخلاب... كل شيء قد طواه النسيان...ليبدأ ذاكرة جديدة.

(البداية)

محمد فرحات

(**2020**)

عن الكاتب

محمد أحمد فرحات

كاتب ومترجم.

- مواليد محافظة المنوفية، 1975
- ليسانس آداب اللغة الإنجليزية

من أعماله:

- سيرة الزكية والعمدة، رواية. دار جوامع الكلم، 2017
- قدر الله، الإمام زيد بن علي، رواية. دار كتبنا، 2019
- سلطان الأولياء سيدي أحمد البدوي، دار كشيدة، 2022
- تحقيق مخطوطة جواهر العقود في نسب شبل الأسود، سيدي الإمام الشهيد محمد بن الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن بني هاشم. قيد النشر.

- هاتف: 01069773806
- البريد الإلكتروني: **22720001marya@gmail.com**

المحتوى

الفصل 1 7

الفصل 2 13

الفصل 3 21

الفصل 4 27

الفصل 5 37

الفصل 6 43

الفصل 7 49

الفصل 8 61

الفصل 9 65

الفصل 10 73

الفصل 11 93

الفصل 12 97

الفصل 13 105

الفصل 14 119

عن الكاتب 129

نوستالجيا

NOSTALGIA